رسائل قرآنية

رسائل قرانية

المؤلف: رسائل قرانية

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف
الطبعة الاولى ٢٠١٩م- ١٤٤٠هـ

مكتب التفسير
للطبع والنشر
أربيل - الشارع الثلاثيني قرب المنارة المظفرية
+964 750 818 08 66
www.al-tafseer.com
tafseeroffice@yahoo.com
/TafseerOffice

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مكتب التفسير
النعمة، إبراهيم
رسائل قرانية ، إبراهيم النعمة (المؤلف)
١٧٨ ص.
١٧* ٢٤ سم
١-الفكر.٢-الفلكرالإسلامي. الدعوة . أ.العنوان. ب.السلسلة
ISBN: 978-9922-620-54-1

رقم الإيداع في المديرية العامةللمكتبات العامة - إقليم كوردستان (٥٧٧) لسنة ٢٠١٩
"الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعتبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر"

تصميم الغلاف: باوان
خط الغلاف : نوزاد كويي

رسائل قرآنية

إبراهيم النعمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نحمدك الله ونستهديك، ونستعين بك ونتوكل عليك، ونصلي ونسلم على مَنْ أرسلته رحمة للعالمين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، وعلى من اتبع هداه إلى يوم الدين!

أما بعد:

فهذه رسائل صغيرة كنت كتبتها ثم طبعت كل واحدة منها برسالة مستقلة في أوقات بين سنوات ١٩٩٤-١٩٩٩م في مدينة الموصل من جمهورية العراق، وهي تُعنى بتفسير موضوعات قرآنية، مع ذكر قضايا تهمُّ المجتمع الإسلامي، وهذه الرسائل هي:

١ ـ الإعراض عن منهج الله وأثره في حياة المسلم.

٢ ـ أُمُّ الخبائث بين الطب والعلم والقرآن.

٣ ـ العلاج النفسي في القرآن الكريم.

٤ ـ الصعود إلى السماء بين القرآن الكريم والعلم الحديث.

٥ ـ المنافقون في القرآن الكريم.

٦ ـ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: خَلْقُه ومعصيته.

٧ ـ التوسل والوسيلة.

وخشية من ضياعها رأيت أن أجمعها في كتاب واحد ليطلع عليها من يهتم بهذه الموضوعات، وتركت تلك الرسائل كما كتبتها أول مرّة من غير زيادة فيها ولا نقص منها، وسميت الكتاب (رسائل في موضوعات قرآنية)، واللهَ أسأل أن ينفع بها كاتبها وقارئها يوم الدين يوم يقوم الناس لرب العالمين، واللهُ يقول الحق وهو يهدي السبيل.

إبراهيم النعمة

الإعراض
عن منهج الله وأثره
في حياة المسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

ارتباط الآيات بما قبلها:

ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة لهذه الآيات العهد الذي عهد الله به إلى سيدنا آدم، فنسي غير متعمد في ارتكاب المعصية؛ إذ ضعف أمام الإغراء بالخلود، وتحذيره سبحانه لآدم من مكايد إبليس الذي استمر في وسوسته، حتى جعل سيدنا آدم يأْكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها؛ فتم عصيانه لربه لكنه سبحانه تجاوز عن خطيئته، ثم هداه وثبته على الصراط المستقيم. فجاءت هذه الآيات الكريمة عن هبوط آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنة، ومصير من اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى، ومصير من أعرض عن شرعه القويم والحياة الضنْك التي سيعايش آلامَها ويتجرعُ غَصصَها وويلاتِها...!

هدف الآيات:

أما هدف الآيات، فهو التحذير من نسيان أوامر الله ووصاياه؛ ليكون الإنسان متيقظاً حذراً؛ خشية أنْ يخدع بوساوس الشيطان التي تعمل على أن ينسى الإنسان أوامرَ الله.

مع الآيات الكريمة:

الخطاب في الآية لبني آدم كلهم في شخص آدم وحواء، متضمناً الحكمَ الذي أصدره عليهما الحَكَمُ العدل: وهو إخراجهما من الجنة جزاء تلك

المخالفة؛ لينتبه إلى ما يكيد له الشيطان فيَحذَرَه. فإن الناس في هذا العالم متنافسون متنازعون تنازع البقاء بين أفراد النوع الإنساني، تنحرف بهم الأهواء هنا وهناك بسبب وساوس الشيطان الكثيرة ومكايده.

والخطاب في الآية الكريمة يجوز أن يكون موجهاً إلى الخصمين: آدم وإبليس، وقد خوطبا بضمير الجمع؛ لأن المراد عداوة نسليهما؛ إذ هما أصلان لنوعين: نوع الإنسان ونوع الشيطان. وهكذا أُعلِنتْ الخصومة بين آدم وذريته، وإبليس وذريته: فلم يكن لآدم وذريته عذر أن يؤخذوا على غرة؛ إذ العداوة أُعلِنتْ في كتاب الوجود ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

لقد أُهبِط آدم وزوجه من الجنة بسبب أكلهما من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها. ولكن هل يترك الله الإنسان هكذا يعبث به إبليس كيف يشاء؟ لا. إن رحمة الله بالإنسان واسعة. فكان من رحمته أن أرسل الرسل ليهدوا الناس إلى الصراط القويم، حاملين بأيديهم مصابيح الهدى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾. ذلك أمر الملتزم بشريعة الله ونظامه. إنه لا يَضِلُّ ولا يشقى: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. وكيف يُصيبه الضلال أو ينالُه الشقاء وقد اتبع هدى الله وسار في دربه؟! وننظر إلى الإنسان غير الملتزم بهدى الله، فنجده متخبطاً في الحَيْرة والقلق، فهو لا يهنأُ بعيش. إنه شقي في الدنيا ولو كان مالكاً من الأموال والثروات ما كان يملكه قارون. أما الشقوة الكبرى، فهي في دار البقاء: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾.

الذكر في القرآن الكريم:

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام لفظ (الذكر) في القرآن الكريم، فنجد أنه ورد في عشرين وجهاً من الوجوه، منها: الذكر باللسان، والحديث، والخبر،

والعظة، والوحي، والقرآن، والتوراة، والشرف، وصلاة الجمعة... الخ. ويدل لكل وجه من الوجوه بعض آيات القرآن. غير أن المعنى المناسب للآية التي نتحدث فيها هو: القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾. أي عن القرآن ولم يتبعْه؛ فإن القرآن يسمى ذكراً، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [عمران: ٥٨] ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١].

إن الإنسان الذي قطع صلته بالله وسلك طريق الغواية، يعيش معيشة الضيق ـ ولو كان من أكثر الناس متاعاً وأموالاً ـ إنه قلق مضطرب حريص على الدنيا خشية أن يفوته شيء من متاعها. إنه يعيش بآهات وآلام: تُقطِّع الحسرات قلبه إن فاته شيء مما يؤمله ويبغي الحصول عليه. إنه يلقى الحاضر جزوعاً ساخطاً، ويواجه المستقبل خائفاً وجلاً. إنه يعيش في رهبة وفزع من غموضه. كل ذلك بسبب الإعراض عن منهج الله؛ فإن القلب لا يشعر بالاطمئنان الحقيقي إلا إذا عاش في كنف الله وفي رحابه!

متى تقع المعيشة الضنك[1]:

هذه المعيشة الضنْكُ التي تحدث فيها القرآن الحكيم قد اختلف العلماء في زمن وقوعها: فقيل: إنها تقع في الدنيا، وقيل في القبر، وقيل في

---

(١) (ضنكا) مصدر ضنك من باب كَرُم. ويستعمل مجازاً في عسر الأمور في الحياة. فهو مصدر وصف به فلم يؤنث لاستوائه في القبيلين كما قال ابن مالك.

ونَعَتُوا بمصدرٍ كثيرا ... فالتَزَمُوا الإفراد والتذكيرا

الآخرة. وأقرب الأقوال: القول الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي. ونص (ابن كثير) في تفسيره على أن وقوعها في الدنيا فقال:

«أي ضَنْكاً في الدنيا، فلا طمأنينةَ له، ولا انشراحَ لصدره، بل صدرُه ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهرهُ ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرةٍ وشك، فلا يزال في رَيْبِه يتردد: فهذا من ضنك المعيشة»[1].

وهذا الذي ذكره (ابن كثير) هو الصواب بعينه؛ فإن الاعتقاد بالله الحق، يجعل الإنسان في راحة تامة، ولا يجد تلك السعادة غير المؤمن؛ فيظل المعرضون عن ذكر الله يتخبطون في متاهات من اضطراب القلب وعدم راحة النفس. يقول (ابن قيم الجوزية):

وهو يتحدث في العقوبات المترتبة على المعاصي: «وقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر. ولا ريب أنه من المعيشة الضنك والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات؛ فإن عمومها من حيث المعنى. فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره. فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم. ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تتوارى عند سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر. فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد. ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٨، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطعه نفسه على الدنيا حسرات. والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]. ونظيرها قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود: ٣]. ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين؛ فإنَّ طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه، وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة. ولا نسبة لنعيم البدن إليه، **وقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أَهْلُ الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إن في الدنيا جنةً هي في الدنيا كالجنة في الآخرة: مَنْ لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»**[1]. ولكن ماذا بعد هذه المعيشة الضنك؟

مسألة الحشر:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

الحشر: هو جمع الناس في الحياة الآخرة لموقف الحساب وهو على وجهين:

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ص١٠٢-١٠٣، بتصحيح وتعليق محمد عبد الوهاب فايد، مطبعة محمد علي صبيح ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

الأول: الحشر بمعنى السوق. قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]، وقال: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢]. وواضح أنَّ المراد بهذا: السوق إلى جهنم.

الثاني: مطلق الحشر: أي جمعهم. قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧]، والمراد بالحشر هنا: مطلق الجمع.

ويبدو من هذه الآيات وآيات أخرى أن مواقف الحشر تتعدد، ولكل موقف حال يليق به.

قضية العمى:

ولكن ما المراد بلفظ (أعمى) في قوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾؟

والجواب: أن للعلماء في هذه القضية مذهبين:

المذهب الأول: أن المراد به عمى البصيرة. وقد حَمَلَهُمْ على ذلك ما جاء في قوله: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢].

المذهب الثاني: أن المراد به عمى البصر. وقد ذهب هؤلاء هذا المذهب ناظرين إلى سياق الآية التي نتحدث فيها فقالوا: إنَّ الإنسان الذي أعرض عن

الامتثال لشريعة الله وأحكامه ووصاياه، يُجازيه الله بأن يعمي بصره كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فكما أن هؤلاء كانوا لا يبصرون الحق في الدنيا ولا ينطقون به ولا يستمعون له، كذلك يحشرون عمياناً جزاء إعراضهم عن منهج الله وصراطه المستقيم. وهذا ما رجحه كثير من العلماء؛ لوجود قرينة تدلُّ عليه، فإن السائل هنا قد صرح بأنَّ عماه في الآخرة هو العمى المقابلُ للبصر الذي هو بَصَرُ العين، فكان الكافر أعمى القلب في الدنيا. وفوق ذلك، فإن الكافر يعلم الحقيقة كما هي يوم القيامة، ويُقِرُّ بما كان يجحده في الدنيا.

سؤال: ويسأل المعرض عن شريعة الله ربه في ذلة وانكسار: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]؟

ويأتيه الجواب من الحَكَم العَدْل: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، أي إنك لم تلتزم بمنهج الله في الدنيا، ولم تحكّم شرعه في شؤون حياتك، فكنت في الدنيا أعمى كهذا العمى الذي أنت عليه في الآخرة. لقد كانت آياتنا تتلى عليك، لكنك صَدَفْتَ عنها معرضاً مستكبراً، أو سائراً وراء شهواتك وأهوائك، فلم تنظر فيها نظرَ المبصر، وها أنت في هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ (تُنْسَى): فلا ينظر الله إليك، ولا تجد مَنْ يقف معك يأخذ بيديك لينجيك من هول هذا الموقف. وهكذا تظل في العذاب الدائم لا ترى السعادة بعينيك. وبمثل هذا الجزاء نجزي المسرف على نفسه ومَنْ لم يؤمن بآيات ربه. إنه يُحْشرُ يوم القيامة أعمى. ووراءَ هذا العذاب عذاب أشد من العمى وأبقى أثراً!!

لمحة قرآنية:

ونلمح من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، أن الإنسان يقرُّ ويعترفُ في اليوم الآخر: أن الإنسان لم يخلق مطبوعاً على الشرِّ والضلال، بل هو مفطور

على الخيرِ والهدى، لكن الإنسان يضل الضلالَ البعيدَ حين ينأى عن شريعة الله، ويزورُّ عن قواعدِها، معرضاً عمّا جاءه فيها، وغيرَ عامل بأحكامها. فكأنّ الإنسان يقرُّ في ذلك اليوم معترفاً أنَّ بصيرته في الدنيا كانت كاملةً تامة، وأنه كان له الاستعدادُ التام للإيمان باللهِ إيماناً صحيحاً والعمل بمقتضاه إذا أراد، لكنه أعْرضَ عن ذلك مختاراً حين أفسدَ فطرته؛ فحقَّ عليه الشقاء.

النسيان:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

وَرَدَ النسيان في القرآن الكريم بمعنيين:

الأول: بمعنى الترك. قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

الثاني: بمعنى خلاف الذكر قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]. وننظر في الآية التي نتحدث فيها، فنجد أن هؤلاء الذين حُشِرُوا عمياناً وحقَّ عليهم العذاب، نَسُوا آياتِ الله، ونسيانُها: هو تركُها وإهمالها وعدمُ العمل بها؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل شرائعه ليحكم بها الناس في حياتهم وليعملوا بها، فإذا نَسِيها الإنسان أو تناساها وأعرض عنها، فإن اللهَ يعامله معاملة مَنْ ينساه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وتعتبر هذه الآية حجة على الذين يقرؤون القرآن أو يستمعون إليه، لكنهم لا يعملون بأحكامه وتوجيهاته.

إشكال:

قد يقول قائل: إذا كان الإنسان الكافر يُحشرُ يومَ القيامة أعمى، أخذاً من الآية التي نتحدَّث فيها، فقد دلَّتْ آيات كريمة أُخرى على أنَّ الكفار يوم القيامة يُبْصرون ويسمعون ويتكلمون كقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، فكيف نفسر هذا الإشكال؟

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن العمى والصمم والبكم يقعُ للناس في أوَّل الأمر، ثم يَرُدُّ اللهُ إليهم بصرَهم ونطقهم وسمعهم، فيرون النار بعيونهم، ويَسْمَعون زفيرَها بآذانهم، وينطقون بألسنتهم.

الوجه الثاني: أنهم لا يَرَوْنَ ولا يسمعون شيئاً يُسَرُّون به، ولا ينطقون بحجة؛ لأنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه. وعلى هذا فقد نزّل ما يبصرونه ويسمعونه ويقولونه منزلةَ العدمِ لعدمِ الانتفاع به. وقد كانت العربُ تُطلق لفظ (لا شيء) على ما لا فائدة فيه، فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأَبْكم، كما قال قعنب بن أم صاحب:

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ به ... وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أذنوا

وقال آخر:

أصمُّ عن الأمر الذي لا أُريدُه ... وأسمعُ خَلْقِ اللهِ حين أُريد

وقال آخر:

قُلْ ما بدا لكَ من زُورٍ ومن كذِبٍ ... حِلْمي أصَمُّ وأُذني غيرُ صمَّاءِ

والراجح من القولين: الأول والله أعلم.

تذييل:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

هكذا يجازي اللهُ المسرفين يوم القيامة. أُولئك الذين أعْرضوا عن ذكر اللهِ ولم يستجيبوا لأحكامه: فقد أسْرَفُوا على أنفسهم بالطغيان والمعاصي، والإسراف جزاؤه النار قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، إنه العذاب الأليم الذي تطول مدته. وإنه الأشد ألماً من عذاب الدنيا. ومِثْلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

المجتمعات الغربية والمعيشة الضنك:

إن المجتمعات الغربية قد أعرضت عن هدى الله؛ فعاشت في ضيق وضنْك من العيش. لقد ظنت تلك المجتمعات أن سعادتها في رخاء العيش والغنى، وقد تيسر ذلك ـ كله ـ لها، لكنها لا تزال تئنُّ وتشكو من ضيق الحياة وتعاستها: فلم تَجِدْ لحياتها مذاقاً طيباً ولا طعماً، حتى ولو كانت رافلة بكل ألوان الرفاهية الدنيوية واللذائذ المادية. إنها تبحث عن طريق يوصلها إلى السعادة الحقيقية، ولكن أنى لها ذلك؟! لقد التَمَسَتْهُ في المادة فأخفقتْ؛ إذ المادةُ ليست كلَّ شيء في هذا الوجود. لقد ضاقت على الناس أنفسهم وحرجت صدورهم، فضاقت الحياة ـ كلها ـ في أعينهم وفي واقعهم، وما أصدقَ قولَ الشاعر:

لَعَمْركَ ما ضاقتْ بلاد بأهلها ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ

فهذا المجتمع السويدي الذي يَرْفُلُ بأنواع النعيم المادي، ويعيش في مستوى اقتصادي أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة: فلا تكاد تجد فرداً في ذلك المجتمع يخاف على نفسه من الفقر عند الشيخوخة أو البطالة؛ إذ الدولة ضمنت لكل فرد ما يكفيه من الإعانات الدورية الضخمة. ومع تلك الضمانات الكبيرة لكل فرد من أفراد المجتمع السويدي، فإنَّ الناس فيها لمّا أعرضوا عن ذكر الله، صاروا يعايشون حياة قلقة مضطربة؛ فازدادت فيهم الأمراض العصبية والنفسية زيادة مذهلة حتى صار ٢٥٪ (خمسة وعشرون من كل مائة) من

الشعب السويدي مصاباً بالأمراض العصبية والنفسية. ومع أن دخل المواطن السويدي من أعلى الدخول في العالم، فإن ٤٠٪ (أربعين من كل مائة) منه يُنْفَقُ على معالجة هذه الأمراض[١] ولم يجدوا مهرباً لهم من تلك المعيشة الضنْكِ إلا بـ(الانتحار) الذي تقترفه الآلاف من الناس هناك؛ ليتخلصوا مما يعانونه من ذلك العذاب النفسي الأليم!!!

وهذه أمريكا التي تَغَنَّى الناس بتقدمها المادي، لم يستطع غناها الواسع وحياتها المترفة أن يحول دون حياة القلق والضياع والتعاسة والشقاء. **لذلك نجدُ من مفكريها كالأستاذ (كولن ولسون) يقول: «إن الحياة في نيويورك غطاءٌ جميل لحالةٍ من التعاسة والشقاء»**[٢] وتقول الأديبة الفرنسية (فرانسوا ساجان) وقد زارت أمريكا: (إن نيويورك ثقيلة الوطأة على الإنسان)[٣].

أجل إنها ثقيلة الوطأة!

وكيف لا تكون كذلك، وفيها ـ وحدها ـ ٢٥ ألف بغية حسب إحصاء شرطتها تستهلك الواحدة منهن ٥٠ دولاراً من المخدّرات يومياً[٤]؟

وكيف لا تكون أمريكا ـ كلها ـ كذلك، وقد كثرت فيها البغايا وانتشرت في كل مكان، حتى صار أكثر من مليون ولد سفاح يولد منها في كل سنة؟ وقد تكفلت الدولة بالإنفاق عليهم وعلى أمهاتهم. يقول كاتب أمريكي: «إن إحصائيات عام ١٩٧٩م تدق ناقوس الخطر. فعدد اللواتي يلدن سنوياً من دون زواج شرعي، وفي سن المراهقة، لا يقل عن ٦٠٠٠٠٠ (ستمائة ألف)

---

(١) انظر كتابنا: أخلاقنا أو الدمار ص٤٠، الطبعة الثالثة، مطبعة الزهراء، الموصل.

(٢) الإيمان والحياة للأستاذ يوسف القرضاوي ص٧٦، الطبعة الخامسة، الناشر، مكتبة وهبة ١٣٩٧هـ.

(٣) الإيمان والحياة ص٧٦.

(٤) الإسلام أولاً للأستاذ عبد الحليم عويس ص٥٧، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٦م.

فتاة، بينهن لا أقل من عشرة آلاف فتاة دون سن الرابعة عشرة من العمر. وإذا أُضيف إلى ذلك عدد اللواتي يلدن بدون زواج بعد سن المراهقة، فإنَّ العدد الإجمالي يتجاوز المليون. ومعنى هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية تستقبل مليون طفل سنوياً (من الزنا والسفاح)، وأن على الدولة أن تقوم بإعالتهم وأمهاتهم، مما يشكل كارثة اقتصادية؛ لأن كل طفل يكلف الدولة ما يقرب من ١٨ ألف دولار. وما يزيد من حجم الكارثة ارتفاع نسبة الطلاق: فقد بلغت عام ١٩٧٩م ما يقرب من ٤٠٪ (أربعين من كل مائة) من جميع حالات الزواج. ومعنى هذا أن على الدولة أن تقوم بإعالة المطلقات اللائي لا يعملن»[1].

الأمراض العقلية والنفسية:

ولكن ماذا عن الأمراض العقلية والنفسية التي انتشرت انتشاراً فظيعاً في المجتمعات الغربية وبخاصة أميركا؟

يقول الدكتور الكسيس كاريل وهو من العلماء التجريبيين:

«من العجب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة. ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بِنُزَلائها، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم. ويقول س. و. بيرس: إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك، يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين حين وآخر. وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادلُ أكثر من ثمانية أَمثال المصدورين. ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة. فإذا استمر عدد المجانين في هذا السير على هذا المعدل،

---

(١) عمل المرأة في الميزان للدكتور محمد علي البار ص١٣١، الناشر: الدار السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

فإن حوالي مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات، سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً»[1].

ويقول أيضاً: «ولا شك في أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس، دليل حاسم على النقص الخطير الذي تعاني منه المدنية العصرية، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية»[2].

أو ليست هذه المعيشة الضنْك التي نص عليها الحكيم الخبير جَلَّجَلَالُهُ في قرآنه؟

الإيدز معضلة العصر:

وماذا عن مرض الإيدز؟

ماذا فعل بالمجتمعات الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية؟

إن مرض (الإيدز) هو مرض نقص المناعة. وقد اكتشف في ربيع عام ١٩٨١م في أميركا. والذين أصيبوا به هم من الذكور الشاذين جنسياً. وهذا المرض الخطير لا ينتقل عن طريق الطعام والشراب أو المصافحة، ولكن ينتقل عن طريق اتصال جنسي بين المصاب والسليم، أو أن يكون السليم قد نقل إليه دم من شخص مصاب.

«وقد أوضح مركز مراقبة الأوبئة في الولايات المتحدة الأمريكية هوية المعرَّضين للإصابة به حيث نشرت إحصائية في تشرين من عام ١٩٨٥م تقول: إنه من أصل ١٤٧٣٩ حالة (إيدز) كان ١٠٦٥٣ منهم من الشاذين جنسياً

---

(١) الإنسان ذلك المجهول تأليف الكسيس كاريل ص١٧٨، تعريب شفيق أسعد فريد مؤسسة المعارف، بيروت.

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص١٧٩.

و٢٤٩٤ منهم من المدمنين على المخدِّرات بوساطة الحقن الوريدية. وأما العدد الباقي، فموزع بين زوجات المصابين وأبنائهم، وبين الذين نقل لهم دم ملوث بفيروس هذا المرض، أو أُعطُوا من مشتقات ذلك الدم الملوث»[1].

إن هذا الداء العضال سلطه الله على المجتمعات الغربية التي أعرضت عن ذكر الله وفقدت الإيمان الصحيح، واتخذت الكفر والشرك طريقاً لها، وانحطت في أخلاقها، حتى صار الكثير من الحيوانات يأنف من محاكاة الغرب في تدهوره الخلقي المشين! إنها الحقيقة التي يقرُّ بها كل منصف مطلع. فإن الزنا واللواط ودور البغاء ونوادي العراة والأفلام الماجنة وتفكك الأسر، والعزوف عن الزواج، والإدمان على الخمور والمخدِّرات. كل ذلك إنْ هي إلا السمة المميزة للغرب بصورة عامة. وكأَنَّ هذا العقاب الإلهي يتحدى أساطين الطب في الغرب أن يجدوا العلاج الشافي!!

أَجل! لقد عرف الغرب سبب المرض وجراثيمه وطرق انتقاله، وأَعَدُّوا كل ما يستطيعون إعداده من أساليب لعلاجه أو إيقاف انتشاره. ولكنهم أخفقوا في عمل أي شيء كان لمواجهة هذا الداء الوبيل، الذي أخذ بتلابيب الناس، وضيق عليهم الخناق. فالمؤتمرات الدولية تعقد هنا وهناك في دول العالم، لكنها لم تُجْدِ نفعاً؛ فتعود لتعلن في نهاية المطاف على رؤوس الأشهاد: أنَّ من غير المتوقع التوصلَ في القريب إلى مصل أو أدوية تساعد على إطالة حياة المصابين بهذا المرض الجديد. إنه تحدٍ من أكبر التحديات أمام الطب الحديث: فالمصابون يموتون أمام عباقرة الطب في الغرب وأميركا على وجه الخصوص. ويقف هؤلاء الأطباء مكتوفي الأيدي من غير أن يتمكنوا من فعل

---

(١) غضب الله تعالى يلاحق المتمردين على الفطرة، تأليف الأستاذ فؤاد سيد عبد الرحمن الرفاعي ص٨، دار الأنبار، الرمادي.

شيء في إنقاذهم؛ فيموت ٤٨ بالمائة من المصابين خلال سنة واحدة، وبنسبة ٧٥ بالمائة في خلال سنتين، وبنسبة ٩٢ بالمائة خلال ثلاث سنوات. وهكذا تكون نسبة الوفيات بهذا المرض تقرب من ١٠٠ بالمائة!

أما عن عدد المصابين، فقد توقعوا أن يصل عام ١٩٩٤م إلى أربعة ملايين مصاب في أميركا فقط، كما ذكرت ذلك إذاعة لندن في ٧/ ١٢/ ١٩٩٣م؛ لذلك أنشئت مراكز كثيرة في العالم تُعنى بهذا المرض، وتصدر النشرات الطبية، وقد خصصت لهذا الخطب الجسيم والأمر الجلل، ميزانيات كبيرة بلغت ١٣٠ مليوناً من الدولارات، ولعلها تضاعفت الآن أضعافاً كثيرة. ويكفي أن نعلم «أن تكلفة التشخيص والعناية بأول ٣٠٠ حالة (إيدز) في أميركا بلغت ١٨ مليون دولار. ومع ذلك ماتوا جميعهم. كما أن تكلفة المريض الواحد تقدر بمائة ألف دولار؛ لذلك فَقَدَ كثير من هؤلاء المرضى حقهم في التأمين الصحي؛ مما اضطرهم إلى بيع بيوتهم لاستعمال أثمانها في العلاج منه»[١].

وقال أحد الشاذلين ممن أصيب بهذا المرض، متحدثاً عما يعانيه من آلام: «إنك لا تعيش آلام (الإيدز) فحسب!! ولكنك تعيش منبوذاً من المجتمع حتى بعد موتك. فهم يرفضون تجهيز جثتك، ولا شيء يجعل الإنسان تعيساً أكثر من ذلك»[٢].

وليس هذا العقاب الإلهي الوحيد الذي سلطه الله على العالم الغربي، فقد يسلط الله على هؤلاء الذين فقدوا الغيرة والشرف، وكثر فيهم الزنا واللواط والسحاق والأفلام الماجنة خطوباً ومصائب وأمراضاً أدهى وأمر أَليستْ هذه هي المعيشة الضنْك التي نص عليها رب العالمين في قرآنه؟!

---

(١) غضب الله تعالى ص٢.

(٢) غضب الله تعالى ص٤-٥.

المجتمع الغربي والجريمة:

وإذا تركنا الأمراض النفسية والعقلية والإيدز جانباً، واتجهنا إلى ما تعانيه المجتمعات الغربية وبخاصة أميركا من الجرائم الفظيعة المرعبة رأينا العجب العجاب! إنَّ تلك الجرائم وصمة عار وشنار في جبين تلك المجتمعات التي تدعي الحضارة والمدنية: فقد كثرت جرائم السرقة والقتل وخطف حقائب النساء. حتى الأحداث صاروا يمارسون الجرائم. ويكفينا أن نعلم أنه يساق إلى محاكم الأحداث ولد واحد من كل ستة أولاد لاقترافه جريمة أو أكثر من الجرائم، وكل هؤلاء ممن لم يبلغ الثامنة عشرة من العمر!

على أنّ هناك كثيراً من المناطق المأهولة بالسكان، لا يستطيع الناس فيها أن يغادروا منازلهم بعد غروب الشمس؛ خوفاً من تعرضهم إلى اعتداءٍ في الطريق! الأمر الذي جعل نسبة الحاملين للأسلحة المرخص بها ترتفع ارتفاعاً غير اعتيادي في كل سنة: في المنازل والسيارات. أما الكلاب البوليسية الضخمة الشرسة التي أُعدت للحراسة، فقد صار وجودها في المنازل أمراً طبيعياً وضرورياً!.

إن هذه الجرائم المخيفة المروعة، جعلت رئيس (الولايات المتحدة الأمريكية) الأسبق (جونسون) يشكل لجنة لمحاربة الجريمة. وقد استمرت اللجنة في دراساتها المتتابعة ومقابلاتها المتعددة، وزياراتها الكثيرة للمحاكم والسجون ومراكز الشرطة، وخرجت اللجنة بنتائج مرعبة مفزعة: وهي تُعدد الجرائم التي تمكنت من العثور عليها!! ويكفي أن نعلم أن نسبة الجرائم تزداد سنة بعد سنة. ففي سنة ١٩٦٦م كانت الجرائم الكبيرة قد زادت على ٣ ملايين جريمة. وهذا يعني أن فرداً واحداً من كل سبعين فرداً أميركياً قد تحول إلى لص أو مجرم، وأن معدل سرقة السيارات يتجاوز نصف مليون سيارة في السنة[1].

---

(١) لزيادة الاطلاع انظر: مجلة الشهاب اللبنانية العدد ١٦ من السنة الأولى في ١٥/ ٩/ ١٩٦٧م عن مجلة تايم الأمريكية في ٢٤/ ٣/ ١٩٦٧م.

أليست الحياة التي تعايشها الولايات المتحدة الأمريكية وسواها من الدول الغربية هي حياةً ضَنْكاً كما أخبر بذلك رب العزة جَلَّجَلَالُهُ؟!!

حول تفكك الأسرة:

ومن أبلغ العذاب الذي تكتوي بناره المجتمعات الغربية: تشتت شمل الأسرة وتمزقها، فلا تكاد تجد تلك الرابطة القوية التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة؛ ذلك لأنَّ الحياة المادية التي تعايشها تلك المجتمعات، افقدتهم كل أثر من آثار تلك الرابطة، وهذا مثال على ذلك:

حدثني رجل أن امرأة انكليزية زارت ولدها ـ وكان يسكن في مدينة غير مدينتها ـ ومكثت عنده عشرة أيام. ولما أرادت أن ترجع إلى مدينتها طالبها بما أنفقه عليها من إيجار البيت في الأيام التي قضتها عنده. حتى إيجار الكهرباء لم يعفها منه.

وذكر طالب كان يدرس في انكلترا ـ وكان ينزل في بيت تسكنه إحدى الأسر الإنكليزية ـ أنه رجع ذات يوم إلى البيت، فرأى ابنة صاحب البيت تبكي بكاءً مراً. فلما سأل عن سبب بكائها أجابوه: بأن غرفة فارغة في البيت عرضناها للإيجار؛ فرغبت ابنتنا في استئجارها، ودفعت لنا مبلغاً أقل مما دفعه غيرها؛ فأجرناها للذي دفع أكثر؛ وهذا كان سبب بكائها!!

وهكذا حياة الغربيين تطغى عليها المادة إلى حد أن ماتت العواطف الكريمة في أبنائها!!

فيا لله! أليست هذه الحياة التي يعايشها الغربيون بماديتها وأنانيتها وموت العواطف فيها هي المعيشة الضنْك التي أخبر بها رب العزة جَلَّجَلَالُهُ؟!!

أما البنت إذا بلغت سناً معينة، فإنها تعاشر وتخالل من تشاء وتشرب الخمرة، وتتعاطى المخدرات تحت سمع عائلتها وبصرها. إنها تتحداهم باسم الحرية والاختلاط، تتزوج في دقائق وتطلق بعد أيام، ولا سلطان لأسرتها في منعها أو محاسبتها؛ إذ ذلك من شأْنها هي، وهل يستطيع أحد أَنْ يمنعها من ذلك والقانون معها يحميها، وقد ماتت الغيرة والحمية والشهامة في نفوس الأسرة كلها؟!

مجتمعنا العربي والإسلامي اليوم:

قد يسأل سائل: إذ ا كانت المجتمعات الغربية تعايش اليوم حياة ضيقة ضنْكاً، فهل مجتمعنا العربي والإسلامي يعايش الحياة الضيقة نفسها؟

والجواب عن ذلك: أن القرآن الحكيم كان نصه صريحاً واضحاً فيمن يتبع هدى الله ومن يعرض عن ذكره.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، وهذا نص عام يشمل كل أمة من الأُمم أو مجتمع من المجتمعات. فقد استطاعت أمتنا بعد انضوائها تحت لواء الإسلام، واستجابتها لله ولرسوله في كل أمر ونهي: أن تضرب أروع الأمثلة في كل أدب جم وخلق رفيع وحكم عادل نبيل! لقد استطاعت أن تكون أمة بحق، ووجد الناس في ذلك المجتمع سعادتهم الحقيقية التي حلم بها الفلاسفة في الخيال، وأوجدها الإسلام حقيقةً في واقع الناس. لقد شعر الفرد المسلم بإنسانيته، وصار يحس بكرامته، ويعايش سكينة في نفسه: لا يحسد أحداً على ما أتاه الله من فضله، ولا يكنّ في نفسه ضغينة لأحد. هكذا شعر بحقيقة الإيمان في قلبه؛ فأثمر تلك الثمرات اليانعة. لقد عاش المسلمون أعزة في

الناس، ونشروا عقيدة التوحيد في العالم. بيد أنهم لما أعرضوا عن ذكر الله بعض الأعراض، وخَفَتَ نور الإيمان من قلوبهم، وسارت الأمة وراء الأهواء والشهوات متَّبعة كل ناعق، ومقتدية بكل ضال، ما حصدت غير الخيبة والشقاء وحياة التعاسة!!

حقاً أن المسلمين اليوم أعرضوا عن تحكيم منهج الله؛ فصاروا يعانون من حياة الذل والهوان. لقد تغيرت أخلاقهم، وتبدلت طباعهم؛ فانقلبت وحدتهم فرقة، وقوتهم ضعفاً، ووحدتهم تشتتاً، وعزتهم ذلة! والواقع المؤلم الذي يعايشه العالم الإسلامي اليوم خير مثال على ذلك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

على أن الأمة الإسلامية ـ ولو أنها أعرضت بعض الأعراض عن منهج ربها ودستور حياتها ـ لا نستطيع أن نقارنها بما وصلت إليه الأمم الغربية من تدهور خلقي وفساد عريض؛ فإن بقايا الإيمان في قلوب أُمتنا لا تزال قائمة، وهي التي حافظت على شيء من الخلق الكريم والأدب القويم.

ولولا تلك البقية الباقية من الإيمان، أَصبحت المجتمعات الإسلامية اليوم أكثر سوءاً من المجتمعات الغربية!

إنها آيات بينات أنزلها الحكيم الخبير على من لا ينطق عن الهوى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تضع الناس على المحجة البيضاء، وهي نذير ـ أيّ نذير ـ لمن يعرض عن هدى الله وصراطه المستقيم!

فهل نتَّبِع هدى الله فلا نضل ولا نشقى، أم نسير وراء أهوائنا وشهواتنا فنؤثر الأعراض عن ذكر الله؛ فتكون حياتنا ضَنْكا؟!!

* * *

أُمُّ الخبائث

بين الطب والعلم والقرآن

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يبلِّغني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، وعلى سائر أنبيائه ورسله، وآله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، وعلى من اتبع هداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الأدلة على أنّ هذا القرآن مُنَزَّل من عند الله كثيرة كثيرة. ومنها: تلك الأوامر والنواهي التي أحلَّ الله بها الطيبات وحرّم الخبائث. والقاعدة في التحليل والتحريم: أنَّ ما كان ضرره خالصاً فهو حرام، وما كان نفعه خالصاً فهو حلال، وما كان ضرره أكبر من نفعه فهو حرام. قال الله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ويأخذ الإنسان العجب العجاب حين ينعم النظر متأملاً في كل أمر ونهي ورد في القرآن الحكيم؛ إذ يتبين له بكل جلاء: أنَّ كل ما أحله الله فيه ما فيه من الخير الجزيل، وأن كل ما نهى عنه فيه ما فيه من الشر الوبيل!! وإذا كان كثير من الناس لم تتضح لهم الحكمة في تلك الأوامر والنواهي: فلأنّ العلوم والمعارف كانت بدائية ـ آنذاك ـ وإن تقدم العلوم الذي أخذ بالألباب في عصرنا الحاضر هو الذي كشف عن جوانب من تلك الحِكَم! وهكذا يقف كل منصف أمام أوامر القرآن ونواهيه مطأطئ الرأس؛ إجلالاً

لهذا الكتاب المعجز الذي ما استطاع البشر ـ كل البشر ـ في مختلف الأعصار والأمصار أن يجد مطعناً في أية آيةٍ من آياته أو كلمة من كلماته!!

لقد سمّى الرسول ﷺ الخمر بـ(أُم الخبائث) قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة فقال: «اجتنبوا الخمر؛ فإنها أمُّ الخبائث»[١].

ويشاء الله أن يؤيد هذا الدين بأناسٍ ليسوا من أهله: فيظهر في العالم الغربي أطباء وعلماء ـ من غير المسلمين ـ ألفوا الكتب في الخمر وأضرارها، وسموها بما سماها به رسول الله ﷺ: (أُم الخبائث).

وفي هذا البحث المتواضع تفسير لآيتين كريمتين كتبَ فيهما الكاتبون ـ ولا يزالون يكتبون كذلك ـ حاولتُ صياغتها بكلمات واضحات، ذاكراً مقتطفات مما دبَّجهُ يراع أفذاذ الأطباء عن أضرار الخمرة الصحية، وما كتبه بعض علماء الاجتماع، وما قاله الشعراء والأدباء. وكذلك ما دوّنه المختصون من إحصائيات حول ما تسببه الخمرة من جرائم، ووباء انتحاري، ومشكلات اجتماعية. سائلاً المولى القدير أن يلهمنا الصواب، ويوفقنا لاتباع المنهج الحق الذي لا منهج غيره. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) رواه النسائي في كتاب الأشربة (ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر) حديث (٥٦٦٩)، وانظر: سنن النسائي بشرح السيوطي ٨/ ٣١٥، المطبعة المصرية بالأزهر.

أُمُّ الخبائث

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

سبب النزول:

ذكر المفسرون في أسباب نزول هاتين الآيتين ما رواه سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أتيتُ على نَفَرٍ من المهاجرين [والأنصار]، فقالوا: تعال نُطعِمُكَ ونَسْقيك خمراً، وذلك قبل أن تُحَرَّمَ الخمر، فأتيتُهم في حُشٍّ ـ والحش: البستان ـ فإذا رأسُ جَزُور مشوي عندهم، ودنٌّ من خمر، فأكلتُ وشربتُ معهم، وذكرتُ الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خيرٌ من الأنصار، فأخَذَ رجلٌ [أحد] لَحْيَيْ الرأس [فضربني به] فجدعَ أنفي، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه؛ فأنزلَ اللهُ فيَّ [يعني نفسه] شأنَ الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ الآية. رواه مسلم عن أبي خيثمة[1].

ولقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذا نظرٍ ثاقب وفكرٍ سديد ورأيٍ رشيد، فكان يدعو أن ينزل اللهُ في الخمر بياناً شافياً. روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ فَدُعي عُمَرُ فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ

(١) أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص٢٠٠، بتحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]؛ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادي: لا يَقْرَبَنَّ الصلاةَ سكران؛ فَدُعِيَ عمر فَقُرِئت عليه، فقال: اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قال عمر: إنتهينا [انتهينا][1].

وقبل أن ينزل تحريم الخمر، حدثت قضايا كان يكرهها رسولُ الله ﷺ بسبب شرب الخمر، منها قصة علي بن أبي طالب مع حمزة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقد قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

«كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم (بدر)، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخُمس، ولما أردتُ أن ابتني بفاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، واعَدْتُ رجلاً صَوَّاغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتيَ بإذخِر أردتُ أن أبيعَه من الصوَّاغين فأستعينَ به في وليمةِ عرسي. فبينما أنا أجمع لشارفيّ [متاعاً] من الأقتاب والغرائر والحبال وشارفاي مناختان إلى جنب حُجْرة رجل من الأنصار ـ أقبلتُ فإذا بشارفيّ قد أُجِبَّتْ أَسْنمتُهما وبُقِرَتْ خواصرهما، وأخِذَ من أكبادهما، فلم أملك عينيَّ حين رأيتُ ذلك المنظر، وقلتُ: مَنْ فعلَ هذا؟ فقالوا: فَعَلَهُ حمزةُ [بن عبد المطلب] وهو في البيت في شَرْبٍ من الأنصار غنَّتْ قَيْنَةٌ فقالت في غنائها:

ألا يا حمز للشُّرُفِ النَّواء ... وَهُنَّ معقّلاتٌ بالفِناء
ضَع السكينَ في اللَّبات منها ... فَضَرِّجْهُنَّ حمزةُ بالدماء
وأطعِمْ من شرائحها كباباً ... مُلَهْوجَةً على وَهَجِ الصلاءِ
فأنتَ أبا عمارةِ المُرَجَّى ... لكشفِ الضر عنا والبلاء

(١) أسباب نزول القرآن ص٢٠١.

فَوَثَبَ إلى السيف فاجْتَبَّ أسنمتَهما، وَبَقرَ خواصرَهما، وأخذ من أكبادهما. قال علي: فانطلقتُ حتى أدخل على النبي ﷺ وعنده زيدُ بنُ حارثة. قال: فعرفَ رسولُ الله ﷺ الذي أتيتُ له فقال: مالك؟ فقلت: يا رسولَ الله، ما رأيتُ كاليوم، عَدا حمزةُ على ناقَتَيَّ فاجتبَّ أسْنمتهما، وبقرَ خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شَرْب.

قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه، ثم انطلق يمشي؛ فاتَّبَعتُ أَثَرَه أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي هو فيه، فاستأذن فأذن له، فإذا هم شَرْبٌ، فطفق رسولُ الله ﷺ يلومُ حمزةَ فيما فعل، فإذا حمزة ثَمِلٌ مُحْمرَّةٌ عيناه؛ فنظرَ حمزةُ إلى رسول الله ﷺ، ثمَّ صعَّدَ النظر [فنظر إلى ركبته ثم صعَّدَ النظر] فنظر إلى وجهِه ثم قال: وهل أنتم إلَّا عبيد أبي؟ فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمِلٌ، فَنكَصَ على عقبيه القهقرى فخرج وخرجنا» [رواه البخاري][1].

وسواء كان سبب نزول آيتي التحريم هذا أو ذاك أو غيرهما، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قرَّر ذلك الأصوليون.

التفسير:

يبدأ النص الكريم بهذا النداء الحبيب إلى القلوب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ وذلك لاستجاشة قلوب الذين آمنوا من جهة، وتذكيرهم بما يقتضيه الإيمانُ من جهة أخرى. وهذا الخطاب الإلهي عامٌّ لكل المؤمنين. وبعد أن استدعى ما في قلوبهم من إيمان، جاءَ التقريرُ الحاسم على سبيل القصر والحصر.

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الخمر: ما خامَرَ العقل وسترَه، كما يسترُ الخمارُ وجهَ المرأة.

---

(١) أسباب نزول القرآن ص٢٠١-٢٠٣.

الميسر: هو القمار.

الأنصاب: هي حجارة كانت تُنْصَبُ حول الأصنام لتذبح فوقها الذبائح تقرُّباً إليها.

الأزلام: هي السهام والحصى للتعرف بها على مغيبات الأقدار ـ حسب زعمهم ـ: فقد كانوا يكتبون على بعض السهام: «أمرني ربي»، ويكتبون على بعضها الآخر: «نهاني ربي»، ويتركون الباقي بلا كتابة. فإذا أرادوا الإقدام على عمل ما: كالسفر ـ مثلاً ـ يضربون هذه السهام، فإن خَرَجَ «أمرني ربي» أقدموا عليه، وإن خرج «نهاني ربي» أحجموا عنه، وإن خرج السهم الخالي من الكتابة أعادوا ضَرْبَ السهام مرةً أخرى.

وهذا النص الكريم يعرضُ لهذه المنكرات التي تقطعُ الصلةَ بين المؤمن وربه. وقد وصفها هنا بوصفين:

أولهما: أنه رجس. والرجس هو القذر، وهو مما تعافه النفس بفطرتها وتستقذره بطبيعتها، وهو مما لا ينطبق عليه وصف الطيِّبات. وقد تشعر لفظة (الرجس) بالأمر الذي اشتدَّ قُبْحُهُ وعَظُمَ تحريمه.

وثانيهما: أنه من عمل الشيطان ومن صنعه. وهو كناية عن غاية القبح ونهاية الشر. إنه يوسوس لهم بشرِّه. وهل يظن أحدٌ خيراً بما يعمله الشيطان وهو عدوُّ الإنسان الأول؟!!

من أجل ذلك جاء قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾؛ تعقيباً على تلك الأضرار المترتبة على الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. والضمير في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ يعود على الرجس الذي جمع من المنكرات ما جمع.

وهنا يدعو القرآنُ الكريمُ الناسَ إلى ترك ما ذكرنا؛ لعلَّ المؤمنَ يصيبُه الفلاح: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وهو أسلوب من أساليب الترغيب في الاستجابة لهذا الأمر الذي حين يمتثله الإنسان يدخل في الفلاح والسلامة.

ويأتي السياق القرآني ـ بعد ذلك ـ يبيِّن ما يريده الشيطان من هذه المنكرات فيقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

إن الشيطان يعمل جاهداً على إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس عن طريق الخمر والميسر؛ فإن الإنسان يفقد عقلَه في الخمر؛ إذ ينطلق شعوره الباطن من سجنه فيفقد وَعْيَه، فلا يعرفُ ما يُقدم عليه من عمل، ولا يُدرك ما يقوله من قول. لقد أعطى الله الإنسان جوهرةً نفيسة، بها يميِّزُ الخيرَ من الشر، والنافعَ من الضار، والصالحَ من الطالح، والهدى من الضلال؛ ويُقَرِّبُ العبدَ من ربه. غير أن الإنسان لا يقدِّر هذه النعمة حقّ قدرها، بل يسيء إليها حين يقوم بشرب الخمرة! وأما الميسر، فيستنزف أموالَ الناس؛ إذ يأكلُ بعضُهم أموالَ بعض بلا حق؛ فتشتعل العداوةُ والبغضاءُ بينهم. وهكذا يتمزَّق المجتمع، وتدبُّ بينهم العداوةُ والبغضاء.

وإذا كان القرآن الحكيم قد ذكر هنا أنَّ الخمرَ والميسرَ يَصُدان عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فلأنَّ الخمرةَ تُلهي أصحابَها فلا يذكرون الله! وكيف يذكرونه وقد استولى عليهم ذلك الرجس؟!! وهذه القضية التي قرَّرها القرآن الكريم هنا، يتمكَّن الناسُ من لمسها في كل زمان وفي كل مكان. ولا أظن أنَّ إنساناً ـ عند ذاك ـ يحتاج إلى أدلة ليرى كيف أنَّ الشيطانَ يوقعُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر، ويصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة!!!

ويأتي التحريض الشديد يدعو إلى الانتهاء عن هذه المنكرات بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟

إنه استفهام يتضمن الأمر بالانتهاء بل إن هذه الصيغة تعد من أَبْلَغ صِيَغ النهي؛ إذ تؤذن أن التحذير مما ذُكِرَ قد بلغ الغاية ووصل النهاية، وأن لا عذر لأحدٍ بعد ذلك. قال الزمخشري:

«وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، من أبلغ ما يُنهى به، كأنه قيل: قد تُلِيَ عليكم ما فيهما من أنواع الصوارفِ والموانِع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا»[1].

لقد أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ من المسلم أن يكونَ يَقِظاً في كل لحظةٍ من لحظاتِ حياته؛ ليكونَ موصولاً بالله دائماً، حامياً نفسَه وعرضَه وماله من كل معتد. وفي يقظته هذه تكاليفُ لربه لا بدَّ أن يقوم بها، وتكاليفُ لنفسه، وتكاليف لأهله. ولا بدَّ له أن يكون يقظاً ليتمكن من أداء تلك التكاليف؛ إذ إن غيبوبة السكر تنافي هذه اليقظة.

على أن هذه الغيبوبة ـ فوق هذا ـ إنْ هي إلا هروب من واقع الحياة التي يحياها، والإسلام يريد من المسلم أن يواجه مشكلات الحياة بثبات ورباطة جأش. إنه يريد منه أن يكونَ ذا عزيمة قوية وإرادةٍ متينة. إنه لا يرضى منه أن يكون خائفاً منها، هارباً أمامها، بل يريد منه أن يواجهها ويتغلبَ عليها؛ إذ الهروبُ منها يعني وهناً في العزيمة، وضَعْفاً في الإرادة، وقد عُنيَ الإسلام عناية خاصة بتربية الإرادة.

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ١/ ٤٨٢.

التدرج في التشريع:

بُعِثَ الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه والمجتمعُ الجاهلي قد غَرِقَ إلى الأذقان في بحر من معاقرة الخمرة: فقلما تَجِدُ ناساً لا يشربونها، بل كان شربها يُعَدُّ من مفاخرهم، وكانت سُوقُها رائجةً في كل مكان، ولم ينزل في تحريمها أيُّ شيء كان آنئذ، فقد كانت الآياتُ تنزل على الرسول ﷺ تصحح الاعتقاد الفاسد الذي كان عليه الناس آنذاك. إنها تعرفهم بالإله الحق الذي يستحق العبادة ـ وحده ـ دون سواه، وتذكر صفاته، وتغرسُ في قلوبهم معنى (لا إله إلّا الله)، وتوضح لهم أنَّ الله لم يخلق الناسَ عَبثاً، وأنَّ هناك داراً أخرى يحاسِبُ اللهُ فيها الناسَ على ما قدَّموا من عمل، ويكون مستقرهم في الجنة أو النار.

وظلت الآياتُ التي تتحدث في أمر العقيدة تنزل على الرسول الكريم مدةً طويلة من الزمن استغرقت ثلاثةَ عَشَرَ عاماً. وبعد أن استقرَّت العقيدةُ الصحيحةُ السليمةُ في نفوسهم، بدأت التكاليفُ من الأحكام تنزل على الرسول ﷺ. وهنا نرى الاستجابةَ التامةَ في امتثال تلك الأحكام من الأوامر والنواهي، بعد أن صححت عقيدتهم، فأخلصوا عبادتَهم لله.

لقد جاءت الأحكامُ التكليفيةُ في القرآن الكريم متدرجةً شيئاً فشيئاً؛ لتكونَ النفوسُ متهيئة لقبولها، من ذلك ـ مثلاً ـ قضيةُ تحريم الخمر التي نتحدث فيها. لقد اعتاد الناسُ معاقرتها إلا من عَصَمَه الله، وكان الشعراء يتمدحون بشربها وإتلاف أموالهم فيها، وكانوا يعدونها هي الحياة والمتعة الحقيقية، ويفضلونها ـ في بعض الأحيان ـ على الأولاد والزوجة والمال. لقد أُغْرِمَ أكثرُ العرب بشربها، سواء كانوا متحضرين أم متبدين. فهذا طرفة بن العبد يذكر أنه حرص على الحياة لثلاث لذات أولهن الخمر فيقول:

ولـولا ثـلاث هـنَّ مـن عيـشة الفتـى وجَـدّك لـم أحْفِـلْ متـى قـام عُـوَّدي
فمـنهنَّ سـبقي العـاذلات بـشربةٍ كُمَيْـتٍ متـى مـا تُعْـلَ بالمـاء تَزْبُـدِ

وأعلن امرؤ القيس أنه ودَّع الصبا إلَّا أربع لذات الخمر أولهن:

وأصبحتُ ودَّعتُ الصبا غيـر أنني أُراقِـبُ خـلَّاتٍ مـن العـيش أربعـا
فمـنهنَّ قـولي للنـدامى ترفَّقُـوا يـداجون نـشاجاً مـن الخمـر مترعـا

وقال أبو محجن الثقفي:

إذا مـتُّ فـادفنِّي إلـى أصـل كرمـةٍ تـروِّي عظـامي في الـتراب عروقُهـا
ولا تـدفننِّي في الفـلاة؛ فـإنني أخـافُ إذا مـا مـتُّ ألَّا أذوقهـا

وتحدَّث الشعراء في الأواني التي تُشرب بها الخمر، والسقاة، والكؤوس، والندامى، والغناء المصاحب للخمر.

لقد بعث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وقد أخذت الخمرة من الناس كلَّ مأخذ؛ فاقتضت حكمةُ العليم الحكيم ألَّا يُفاجَأ الناسُ بتحريمه جملةً واحدةً فتنوء به كواهلُهم وتنفر منه نفوسُهم. فلم يصرح القرآن بتحريمه بادئ ذي بدء، بل جاء متدرجاً في ثلاث مراحل، والمرحلة الثالثة هي التي نَصَّ الله فيها نصاً صريحاً واضحاً في التحريم.

لقد جاءت المرحلةُ الأولى توحي بأن تركَ الخمرة أولى من شربها. فلما سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن الخمر والميسر نَزَلَ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

وهذا الأسلوب القرآني فيه معنى النهي عن الخمر والميسر، ولكن لا يفهم معنى النهي ذلك إلَّا من كان خبيراً بسرِّ التشريع؛ ذلك أن ما كان ضررُه

أكثر من نفعه ينبغي تركه؛ إذ لا يوجد في الأفعال شرٌّ محض، فتكون العبرة في الحل والحرمة بغلبة جهة المصلحة أو المفسدة. وهذا ليس تحريماً صريحاً يدركه الناس كلهم، بل هو بيان لأصحاب العقول السليمة يدعوهم إلى أنْ يتركوا الخمرَ والميسر، فإن العاقل يمتنع عنهما وإن لم يُصَرِّح الشارع بذلك التحريم؛ إذ قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، يدلُّ دلالةً راجحةً على التحريم[1]. ومع ذلك كله، فإن الآية الكريمة لا تحمل نصاً صريحاً في تحريم الخمرة؛ لذلك امتنع عن شربها بعضهم، وظل يشربها بعضهم الآخر.

وبعد هذا البيان بفترة من الزمن نَزَلَ قولُ الله تعالى الذي يُحَرِّم فيه الخمرَ تحريماً جزئياً، وهذه هي المرحلة الثانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وكأنَّ هذه الآية تشير إلى حرمة شرب الخمر في كل وقت؛ إذ إنَّ أوقات الصلاة معظمها متقارب: فلا يكفي الوقت للسكر ثم الإفاقة. وهكذا تصير فُرَصُ شرب الخمر ضيِّقة. وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية أنَّ عبد الرحمن بنَ عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صنع طعاماً فدعا الناسَ إليه وسقاهم الخمر، فأخذت الخمرةُ منهم مأخذها، وحضرت الصلاة، فتقدَّم أحدُهم إماماً وقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، **ونحن نعبد ما تعبدون**﴾، فأنزل الله هذه الآية[2].

---

(١) هناك قاعدة فقهية قرَّرها الأصوليون هي: «درء المفاسد أولى من جلب المنافع»، فإذا كانت المصلحة والمفسدة متساويتين، فإن درءَ المفسدة أولى من جلب المصلحة، فكيف إذا كانت المفسدة هي الراجحة؟!!

(٢) انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص٦٩، الطبعة الأولى، مطبعة الملاح بدمشق ١٣٧٩هـ، وأسباب نزول القرآن للواحدي ص١٤٦.

أما المرحلة الثالثة الأخيرة، فكانت حاسمةً قاطعة في التحريم، وقد كانت نفوس الناس قد تهيأت لقبولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فاجتنبوه:

ولا بدَّ لنا أن نشيرَ هنا إلى ما يجري على ألسنةِ قسم من أنصاف المثقفين من الشباب الغرِّ الذي تأثَّرَ بأحابيل أعداء الإسلام، فإنَّ بعضَ هؤلاء يزعم أنَّ أسلوبَ تحريم الخمر هو أسلوبُ تحذيرٍ وكراهية أكثر من أسلوب تشريع. فلم يكن لفظ الخمر في آيتي سورة المائدة يعني التحريمَ القاطع، وإنما هو أشبه ما يكون بالكراهية! ويُدَلِّلون على رأيهم الفاسد بأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ ولم يَقُلْ حرَّمته فاتركوه مثلاً. وقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ولم يقل: فانتهوا عنه. أي أنَّ الله تعالى حين حرَّم الخمرة لم يقرنها بالمحرمات التي نَصَّ في تحريمها نصاً صريحاً بلفظ «حُرِّم» أو «حُرِّمت»!!!

وهؤلاء الذين يذهبون هذا المذهب الفاسد في تأويل كتاب الله تأويلاً ليس له سند لغوي أو تشريعي، إنما يريدون أن يهوِّنوا من أمر هذه الجريمة المنكرة ـ جريمة شرب الخمر ـ ظانين أن هذا التأويل قد يَرْفَعُ عنهم شيئاً من آثامها حين يقدمون على شربها!!

إن هؤلاء الذين يؤوِّلون آيات الله هذا التأويل الفاسد يكذبون على شريعة الله، ويفترون على أحكامه؛ فإنَّ الصيَغَ الدالة على الوجوب لا تنحصر بصيغة الأمر، بل تكون في غير ذلك من الألفاظ أيضاً مثل: «كُتِبَ» كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وكذلك من صيغ الأمر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن هذه الصيَغِ ـ أيضاً ـ لفظ «فَرَضَ» كما في حديث رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، قد فرضَ اللهُ عليكم الحجَّ فحجُّوا»(١).

وكذلك الحال في صيغ النهي الدالةِ على التحريم؛ فإنها لا تنحصر في صيغة: «لا تفعلوا» أو «حُرِّم عليكم»، بل تأتي بهاتين الصيغتين وبغيرهما كصيغة الاستفهام التي تتضمن الأمرَ بالانتهاء كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فإنَّ هذا الاستفهامَ وَرَدَ بمعنى الأمر، وفيه معنى التهديد. وقد يكون هذا الأسلوبُ أبلغَ من الأمر الصريح.

على أن الآية الكريمة وَصَفَت الخمرَ هنا بأوصافٍ قبيحة، حتى جعلتها كبيرةً من أعظم الكبائر، ومنكراً من أكبرِ المنكرات: فقد وصفتها الآيةُ بأنها رجس ومن عَمَل الشيطان، وتوقعُ العداوة والبغضاء، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة! وهذه الأوصاف تدل دلالة واضحة على التحريم.

وإذا كانت (الميتة) و(الدم) و(لحم الخنزير) قد جاء تحريمُها في لفظ «حُرِّمت»، فإن تلك المحرمات لم توصف إلا بأنها فسق. أما الخمر، فقد وصفتْ بأوصافٍ أخرى تنفر منها الطباع السليمة، وتشمئزُّ منها النفوس المستقيمة. لقد وصفت بأنها رجس، ومن عمل الشيطان، وتوقع العداوة والبغضاء، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة!

أوَلا تدلُّ هذه الأوصافُ التي وُصفت بها الخمرة على أنها من أشنع المحرماتِ وأكبرِ المنكرات؟!

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

على أنَّ هذه الأوصافَ الشنيعة ـ التي وُصِفَتْ بها الخمرة ـ حتى لو لم تأتِ في القرآن، لكان قولُه: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ حكماً قاطعاً لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر. إنه قد أمر باجتنابها، وإن الله حين يأمر باجتناب شيء، فإنَّ هذا الأمر قد يكون أشدَّ من التصريح بلفظ (الحرمة)؛ ذلك أن لفظ (الاجتناب) يُعطي حكمَ التحريم بصورة مؤبَّدة لا يحل بعده بوجهٍ من الوجوه. وهذا بخلاف الحكم الصادر في القرآن بلفظ (التحريم) ابتداءً؛ إذ ينتقل الحكمُ من الحرمة إلى الإباحة في بعض الأحيان إذا استجدَّت أحوالٌ خاصة؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أباح للمضطر أن يأكل من (الميتة) و(الدم) و(لحم الخنزير)، ولا إثم عليه حينذاك، مع أنَّ الحكم بحرمة ما ذكرنا ورد صريحاً في القرآن الكريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣].

أما المنكرات التي أمَرَ الله باجتنابها، فإنَّ هذا الحظْرَ لم يُرفعْ عنها أبداً. ويدلُّ على هذا دلالةً واضحةً قولُه تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا سيدنا إبراهيم يدعو ربَّه فيقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ونحن نلاحظ هنا: أنَّ لفظ الاجتناب جاء في قضية من أخطر القضايا وهي قضية العقيدة. فهل يستطيع أنْ يزعم إنسان عاقل أنَّ عبادة الشيطان غيرُ محرَّمة، بل هي مكروهة، وأن عبادة الأصنام غيرُ محرمةٍ كذلك؟!!

على أنَّا حين نتأمل في الكلمة القرآنية: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، نرى أنها أشدُّ تحريماً من قوله: حُرِّمت عليكم الخمر ـ مثلاً ـ ذلك أن هذا اللفظ يُعْطي

معنى النهي عن الاقتراب منه فضلاً عن الوقوع فيه. وهنا يكون النهي عن الاقتراب منه أبلغ في الاحتياط من قوله: لا تفعل كذا؛ إذ الاقتراب قد يُغْري الإنسانَ به فيقع في المحظور كما قال رسول الله ﷺ: «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يَرْتَعَ فيه».

ويضرب الشيخ محمد متولي الشعراوي مثالاً على هذا فيقول:

«إذا قيل لك: لا تكلمْ فلاناً، فيكفي لكي تُنَفِّذَ هذا الأمر وتلتزمَ به أن لا تتحدَّث مع هذا الشخص الذي طُلِبَ منك عدمُ الكلام معه، أو حُرِّم عليك الكلامُ معه. يمكنك مثلاً أن تلقاه. يمكنك أن تجلسَ معه في مكان واحد. وأن تأكلَ معه. وأن تعيشَ معه في حُجْرة واحدة. والمطلوبُ منك فقط ألَّا تكلمه. وحينئذ تكون منفذاً للأمر الذي صدر إليك. رغم أنك تعيشُ مع هذا الشخص وتعايشه.

ولكن إذا قيل لك: اجتنبْ هذا الشخص، فإنك لكي تُنَفِّذَ هذا الأمر، يجب أنْ تبتعدَ عن كل مكان يوجد فيه. لا تستطيع أن تأكُلَ معه. ولا أنْ تجلسَ معه. ولا أن تعيش معه في حجرة واحدة. وإذا وُجِدَ في مكان ما فعليك أن تغادره فوراً. وإذا وجدته في الطريق. عليك أن تتجنَّبه وتتخذَ طريقاً آخر. فأيهما أبلغ في التحريم؛ أن يقال: حرَّمت عليكم الخمر، أو أن يقال: فاجتنبوه؟ طبعاً الاجتناب أقوى كثيراً من التحريم»[1].

وفي هذا المعنى وَرَدَ النهيُ عن الزنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فإنَّ النهيَ هنا عن الاقتراب منه؛ إذ لو تحقَّقَ الاقتراب، فإن باباً واسعاً من أبواب الشيطان ينفتح أمام الإنسان!!

(١) أسئلة حرجة للشيخ الشعراوي ص٣٦.

وحين نتأمل في هذا اللفظ القرآني مرةً أُخرى، نرى أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لو قال: حرّمتُ عليكم الخمر، فقد يتأوّل متأوِّل فيقول: أنا أحمل الخمر لمن يشربها فلا أكون داخلاً في هذه الحرمة!! لكن جاء اللفظ القرآني: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ لينصَّ على أنَّ المسلمَ محرَّمٌ عليه أن يشربَها أو يحملَها أو يتاجرَ فيها!!!

وهذا يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فإن هذه الآية الكريمة تنصُّ على أن الله تعالى أباح لهما أن يأكلا من كل ما في الجنة، لكن نهاهما عن الاقتراب من شجرة معيَّنة. فلم يقل الله: لا تأكلا من هذه الشجرة مثلاً، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ لأنَّ محارم الله يجب الابتعاد عنها وعدمُ القرب منها؛ لأن القرب منها يُغري الإنسان بها فيقع في المعصية. وهكذا يكون لفظ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أشدَّ في الاحتياط من قوله: لا تأكلا مثلاً. «ولذلك يلاحظ في القرآن أن كل شيء محرم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، لكن في المحللات يقول: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي لا تتعدوها»[1].

أوَلا يكون هذا وجهاً من أوجه (إعجاز القرآن الكريم)؛ إذ وُضعَ اللفظُ المناسبُ للمعنى المراد، ولا يؤدي لفظ آخرُ ذلك المعنى نفسه أبداً؟!!

على أن القرآن الكريم ـ فوق هذا كله ـ أكَّدَ تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بمؤكِّدات كثيرة، منها:

١ ـ وصف الخمر وما عطف عليه بأنه رجس. والرجس هو القذر. وهذا اللفظ يدل على منتهى القبح والخبث. وإذا كان القرآن الحكيم قد أحلَّ لنا

(١) أسئلة حرجة للشيخ الشعراوي ص٣٥.

الطيِّبات فقد حرَّم علينا الخبائث. ونصَّ الرسولُ ﷺ على أن الخمرَ أمُّ الخبائث والفواحش فقال: «الخمر أم الخبائث»[1].

وقال: «الخمرُ أمُّ الفواحش، وأكبرُ الكبائر، ومَنْ شَرِبَ الخمرَ تَرَكَ الصلاة، ووقعَ على أمِّهِ وعمته وخالتِه»[2].

٢ ـ افتتحت الآية بـ﴿إِنَّمَا﴾ وهذا اللفظ يدل على الحصر، فلا يكون في الخمر خيرٌ البتة.

٣ ـ قُرِنَت الخمرةُ بالأنصاب والأزلام، وهما من أعمال الوثنية.

٤ ـ وُصِفَت الخمرةُ بأنها من عمل الشيطان: وذلك للشرور التي تنشأ عن شربها.

٥ ـ استعمل القرآن هنا لفظ الاجتناب ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾. وهذا اللفظ أبلغ من الترك؛ لأنه يعطي الأمرَ بالترك مع البعد عنه؛ لذلك وردت آيات القرآن بلفظ (الاجتناب) عن ترك الشرك والطاغوت والكبائر وقول الزور، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

٦ ـ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إشارة إلى أن اجتنابهما مرجاة للفلاح، وأن ارتكابهما خسران وخيبة في الدنيا والآخرة.

٧ ـ من أسباب إثارة العداوة والبغضاء: الخمر والميسر. وتقوم هاتان الصفتان بإثارة الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال.

٨ ـ إن الخمر والميسر يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة.

٩ ـ جاء الأمر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام التي تتضمن الأمر بالانتهاء.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ورمز إليه السيوطي بالصحة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير ورمز إليه السيوطي بالصحة.

وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية ـ وهي مفسرة لكتاب الله ـ نرى أنها نصَّت نصاً صريحاً لا تأويل معه على حرمة شرب الخمر: كثيرِه وقليلِهِ. من ذلك حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَعَنَ رسولُ الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصِرَها، ومعتصِرَها، وشارِبَها، وحامِلَها، والمحمولةَ إليه، وساقيَها، وبائعَها، وآكِلَ ثمنها، والمشتريَ لها، والمشترى له»[1].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مسكرٍ حرام»[2].

وقال: «ما أسكَرَ كثيرهُ فقليلُه حرام»[3].

وقال: «كل مُسْكِرٍ خمر، وكُلُّ مُسْكِرٍ حرام»[4].

حكمة التحريم:

إن المسلم ينقاد لأمر الله ورسوله سواء عَرَفَ الحكمة من التحليل والتحريم أَم لم يعرف. لكن معرفته بالحكمة قد تزيد في إيمانه أو اطمئنان قلبه. وقد طلب سيدنا إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فلا مانع إذن من البحث فيها.

لقد ثبت بالدليل القاطع أنَّ من يعاقر الخمرة يصاب بأضرار بالغةٍ في عقله وأخلاقه وجسده وماله. وربما لا نجد عملاً من الأعمال ينتج عنه من الضرر الكبير ما ينتج عن شرب الخمرة. فهناك يقع النزاع والخصام بين السكارى أنفسهم وبينهم وبين مَنْ يعاشرهم.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه. قال الحافظ: ورواته ثقات.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي وأبو داؤد.

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داؤد والترمذي والنسائي والبيهقي.

وينشأ عن شرب الخمرة إماتةُ الحياء، وكشفُ الأسرار، والخسة والمهانة في أعين الناس، وذهابُ المال وفناء الثروة. وأحب هنا أن أشير إشارةً موجزة إلى شيء من حِكَم التحريم فوق ما ذكرناه.

١ ـ الخمر والصحة:

لقد كتب أطباء العالم وبخاصة غير المسلمين كتباً كثيرة عن أضرار الخمرة وما تفعله بجسم الإنسان. وأحبُّ هنا أن أنقل ما كتبه الأستاذ الفاضل الطبيب وجيه زين العابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنه يقول:

«لا يمرُّ الكحولُ في نسيج من أنسجة الجسم إلَّا ويؤذيه. تستقبل المعدة هذا الخبيث فيحرقها: فتدافع عن نفسها بالاحمرار وزيادة الحموضة فكثرة الغازات. وتدخلُ الخمرةُ الكبد فتصاب بالتليّف: وهو تشمّع الكبد الذي لا يعرف الطبُّ علاجاً شافياً له. وإذا علمنا أن للكبد أكثرَ من مائة وظيفة، فليقدِّر شاربُ الخمر مدى الضرر الذي يسببه لنفسه. والخمر تؤذي (غدة البانكرياس)، فإذا التهبتْ فالمعالجة صعبة وطويلة، ويكون الكحول في الرئة، ويكون في القلب فيسمم عضلة القلب. وقد زعم الأطباءُ من قبل أنَّ للكحول بعض النفع في توسيع شرايين القلب، ولكنهم قبل بضع سنوات صَحَّحوا خطأهم، ووجدوا بكل تأكيد أنَّ الخمرة لا تفيد شرايين القلب. ويسري هذا السُّمُّ في الدم فيسبب شَلَلاً جزئياً أو نصفياً لا يكون إلَّا من الخمرة. والغالب أن يغفل الأطباءُ عن السبب؛ فيتحروا أسباباً أخرى لهذا الفالج وما هو إلا الخمرة. ويمرُّ الكحولُ في الدماغ، فيسبب بصورة تدريجية نقصاً في قشرة الدماغ: ثبت ذلك بالأشعة أي أشعة المفراس C.A.T. SCAN، ثم تضمر هذه القشرة فتصيب المدمنَ أمراض عصيبة مختلفة: كشلل بعض الأعصاب، وضعف الذاكرة، واضطراب الفكر وتشوشه، وربما أصابه نوع من الهلوسة والجنون مما

هو مختص بالخمر، وفي طريقه إلى الكلية يؤذي الكحول ما يمرُّ عليه من أنسجة، حتى إذا أرادت الكلية أن تتخلص منه دفعت ثمناً لذلك بعضَ أنسجتها حتى تنخذل نهائياً وتتوقف عن العمل. ولا يظن أحد أنَّ هذه الأعراض تأتي المدمن أو المفرِّطَ فقط، فهي قد تُصيبُ من يزعم أنه لا يشرب الخمر إلَّا قليلاً أو في ما يسميه المناسبات. وقد يُصابُ مدمنُ الخمرة بالهلوسة والغيرة الوهمية، أو يتجول ولا يدري أين مكانه. وربما آل به الأمر وهو في هذه الحالة إلى الانتحار. ويقول أحد الأطباء الأمريكان. إن ربع مرضى الباطنية في المستشفيات هم بسبب الخمرة»[1].

أما الدكتور (برنت) فيقول: «إنَّ واحداً من كل خمسة يدخلون المستشفيات في اسكتلندا قد أدخل بسبب شرب الخمور وإدمانها»[2].

ونشرت جريدة (الثورة) البغدادية في عددها ٣٠٢٥ الصادر في ٥/ ٦/ ١٩٧٨م إحصائية الصحة العالمية، فذكرت أن في العالم مائتي مليون من الأشخاص فيهم نقصان عقلي بتأثير الخمرة الوراثي.

وأضافت الإحصائية: أن هناك ثمانين مليوناً ونصف المليون من البشر قد أصيب بالجنون؛ نتيجة تعاطي الأدوية المخدِّرة والمسكرات بصورة مباشرة، وأشارت إلى أنه يوجد في العالم حالياً خمسون مليوناً من البشر يعتبرون مجانين، وغالبيتهم من الرجال. وحذَّرت المنظمة من زيادة عدد المجانين في العالم بسبب الإدمان على المخدرات وتناول الخمور[3].

---

(١) صحة الشيخ للأستاذ الفاضل الدكتور وجيه زين العابدين ص٣٠-٣٢، مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٦م.

(٢) الخمر بين الطب والفقه للدكتور محمد علي البار، ص٨٦، الطبعة الخامسة، الدار السعودية.

(٣) روائع إسلامية للمؤلف ١/ ٥٩ الطبعة الثانية، مطبعة الزهراء في الموصل ١٤٠٤هـ.

و«أشارت دراسة جرت في كاليفورنيا عام ١٩٦٣م إلى زيادة نسبة الوفيات بين المدمنين بمعدل ٢١,٢ عنها بين غيرهم. وأثبتت تقاريرُ شركات التأمين على الحياة في أمريكا: أنّ نسبة الوفيات بين محتسي الخمر بكثرة ـ حتى وإن لم يصلوا إلى مرحلة الإدمان ـ أعلى من نسبتها بين مَنْ لا يتعاطون الخمور. كما بَيَّنَتْ إحصائية جرت في أمريكا أن ٣٠ شخصاً يموتون هناك يومياً بسبب تناول المسكرات. واتضح من دراسة قامت بها دائرة الصحة العامة في جامعة (هارفرد) الأمريكية بالتعاون مع إحدى مؤسسات القطاع الخاص المتخصصة في مثل هذه الدراسات والمعرفة باسم (تحليل السياسة): أنَّ المدمنين يموتون بأعمار تتراوح بين سن ٢١ و٥٩، بينما يعيش غير المدمنين في المتوسط حتى سن السبعين. وأبانت إحصائية رسمية نشرت في باريس: أنَّ الخمورَ تقتل ٣٧,٤٥٠ شخصاً في فرنسا كل عام»[١].

ويكفينا أن نعلم ـ أيضاً ـ أن في فرنسا ارتفع هذا الرقم فصارت تقع في كل سنة خمسون ألف حادثة وفاة بسبب إدمان المشروبات الكحولية. يقول البروفيسور (جوليان بيانكوف):

«إن تشريح جثث الموتى أظهر أن ١١٪ من مجموع الوفيات في فرنسا ناتج من تعاطي الخمور. أي أن أكثر من ٥٠ ألفاً يموتون سنوياً بسبب الإدمان الكحولي. ومن دراسة تقارير البوليس وسجلات الأطباء تبين أن الكحول مسؤول عن ٥٠٪ من حوادث السير هناك»[٢].

---

(١) الخمر حرمتها الشرعية وأضرارها الصحية تأليف باقر خليل الخليلي ص٥٦، مطبعة العمال ١٤٠٧هـ.

(٢) الخمر بين العلم والدين تأليف عبد المجيد محمد أحمد الدوري ص١٣٥، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٦م.

٢ ـ الخمر والجريمة:

ومما تفعله الخمرة بشاربيها إغراؤهم بارتكاب الجرائم. فلقد تبيَّن من إحدى الإحصائيات «أنَّ عدد المجرمين في الدول التي يكثر فيها تناول الخمر، يزيد ثلاثة أمثال عما في الدول التي يقل فيها شرب الخمر»[١].

وأشارت الإحصائيات ـ أيضاً ـ إلى أن «نصف إلى ثلاثة أرباع» الجرائم التي تقع في سويسرا تكون نتيجة للإدمان الكحولي[٢].

أما في أمريكا فإن «الجرائم قد انخفضت بعد تطبيق القوانين التي تحدِّد أو تُقَلِّل من استهلاك الخمر في أوقات الحرب، وظهر ارتفاعها في نهاية الأسبوع في الولايات المتحدة، حين يزداد استهلاك الخمر. وفي إحدى هذه الدراسات تبين أن من كل (٤) جرائم قتل، تتم واحدة منها والمجرم تحت تأثير الخمر، وأن $\frac{١}{٥}$ ضحايا هذه الجرائم تناولوا الخمر قبل وقوع الجريمة، وأن (٩) جرائم اغتصاب من كل ١٦ جريمة من هذا النوع تتم والمجرم تحت تأثير الخمر. والنِّسَبُ ـ أيضاً ـ مرتفعة في حالات اعتداء الذكور على الذكور جنسياً، وفي حالات الاستعراء»[٣].

وذكرت المجلة الطبية البريطانية في العدد رقم ٧٧٩٠ بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٧٢م أن الجرائم التي ارتكبت بسبب تعاطي الخمور عام ١٩٧٠م بلغت ٢٧,٩٧٢ جريمة، وارتفعت في عام واحد هو عام ١٩٧١م إلى ٣٩,٨٤٠ جريمة[٤].

---

(١) الخمر حرمتها الشرعية وأضرارها الصحية تأليف باقر الخليلي ص١٥، مطبعة العمال ١٤٠٧هـ.

(٢) الخمر ومضارها على الجسم والعقل للدكتور نبيل الطويل ص٤، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٥هـ.

(٣) الإدمان مظاهره وعلاجه للدكتور عادل الدمرداش ص٩٨، سلسلة عالم المعرفة ٥٦، الكويت.

(٤) مجلة نداء الإسلام عدد شوال سنة ١٩٧٧م، ص٧ والمقال بعنوان: آن للعلم أن يحرم البيرة للدكتور سالم نجم.

وارتفعت نسبة الجرائم أكثر، فذكرت المجلة الطبية البريطانية «أن ما يقارب المائة ألف يدخلون سجون انكلترا أيام عيد الميلاد ورأس السنة بسبب إفراطهم في الخمرة»[1].

وجاء في تقرير لهيئة الصحة العالمية أن ٨٦ بالمائة من جرائم القتل كلها و٥٠ بالمائة من جرائم الاغتصاب والعنف قد تمَّتْ تحت تأثير الخمور ذكرت ذلك (الديلي ميل) في ٢٦/ ٦/ ١٩٨٠م.

٣ ـ الوباء الانتحاري:

قام عدد من الأطباء الاختصاصيين في المستشفى الغربي في مدينة (جلاسجو) ـ وهو أحد المستشفيات التعليمية ـ بكتابة بحث في ظاهرة الانتحار وعلاقته بتعاطي الخمور ما بين الأعوام ١٩٥٤-١٩٧١م نُشِرَت تفاصيله بإحصائياته في المجلة الطبية البريطانية اللانست بتاريخ ٢٥/ ١١/ ١٩٧٢م؛ فتبين للباحثين أن هناك زيادة كبيرة في عدد الأشخاص الذين أدخلوا في المستشفى المذكور للعلاج من محاولات الانتحار. ففي سنة ١٩٥٤م كان عدد من انتحر أو حاول الانتحار لا يزيد عن الستين شخصاً، بينما ارتفع هذا العدد إلى ما يزيد عن الخمسمائة في عام ١٩٧١م. وتبين من الإحصاء ـ أيضاً ـ أن ثلاثة أشخاص من كل ألف في المدينة المذكورة (جلاسجو) ادخلوا في مستشفيات المدينة بسبب الانتحار عام ١٩٧٠م. غير أن هذا الرقم لا يمثل العدد الحقيقي؛ إذ كل شخص يدخل المستشفى يقابله شخصان اثنان يعالجان خارج المستشفى. وهكذا تكون النسبة قريبةً من ١٪ واحد من كل مائة.

ولقد ثبت لهؤلاء الباحثين ـ أيضاً ـ عن ٢٧٠٦ من حالات الانتحار ما بين رجال ونساء «أن ٩٠٪ من الرجال ممن حاولوا الانتحار شربوا

---

(١) صحة الشيخ للدكتور وجيه زين العابدين ص٣٢.

الخمر قبل الإقدام عليه، وأن الخمر عامل أساس لدرجة الإدمان في ٤٥٪ من حالات الانتحار لدى الرجال. أما في النساء، فإن الخمور كسبب مباشر لا تتعدى ١٠٪، ولكن إدمان الزوج وإهانته لزوجته أو ابنته وما يصاحب هذا السلوك من ضائقة مالية أو اجتماعية تدفع ٤٣٪ من النساء إلى ارتكاب جريمة الانتحار»[١].

ولقد قام الأطباء أنفسهم بدراسة أخرى لعام واحد، ابتدأت من شهر كانون الثاني ١٩٧١م حتى شباط سنة ١٩٧٢م، وتضمنت الدراسة ٥٢٠ حالة انتحار ٢٠٧ للرجال و٣١٣ للنساء. وتبيَّن لأصحاب البحث «أن مشكلة المشروبات الكحولية هي أكثر العوامل ثبوتاً وأبعدها أثراً على من يحاولون الانتحار. وهناك نسبة كبيرة بين شاربي الخمر من الجنسين يرتكبون أعمالاً عنيفة وهم تحت تأثير الشراب، بل إن منهم من يعتدي بالضرب على زوجته أو ابنته، مما يدفعه أو يدفعها إلى الانتحار. كذلك تبيَّن أن عدداً غير قليل من مدمني الخمور يُعانون من أمراض نفسية معقدة. وطبقاً لتحليل نسبة الكحول في الدم وقت ارتكاب جناية الانتحار، وجد أنَّ حوالي ٩٠٪ من الرجال قد تناولوا المسكرات بساعات قليلة قبل الانتحار»[٢].

٤ ـ مشكلات اجتماعية:

لقد كان موقف الإسلام الحاسم القاطع في أمر تحريم الخمر له أثره الكبير في تخليص مجتمعاتنا المسلمة من مشكلات كبرى يعاني منها العالم كله، وبخاصة في أوربا وأمريكا. لقد أصبح انتشارُ الخمر بين الناس كافة،

---

(١) مجلة نداء الإسلام عدد شوال سنة ١٩٧٧م ص٧، والمقال بعنوان: (آن للعلم أن يحرِّم البيرة) للدكتور سالم نجم.

(٢) الطب الوقائي في الإسلام للدكتور أحمد شوقي الفنجري ص٢٦٩، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

يُشكِّل مشكلات اجتماعية خطيرة، الأمر الذي جعل في كل بلد من تلك البلاد عشرات الهيئات المختصة في مقاومة حالة السكر ومعالجة المدمنين، بل نجد مستشفيات كثيرة عُنيت بمعالجة مصابي الخمر. «وقد نشر المجلس الوطني للمسكرات في أمريكا سنة ١٩٦٦م إحصائية يذكر فيها أن في أمريكا وحدها ٦ ملايين رجلاً وامرأة يدمنون الخمر إلى حد التسمم، وأن الخمر تسبب في:

١٠٪ من حالات الجنون والاضطراب العقلي التي أدخلت المستشفيات.

٣٠٪ من حالات الطلاق وتشرد الأطفال.

٢٥٪ من حوادث السيارات.

٦٥٪ من أسباب البطالة أو التهرب من العمل.

وبلغت خسائر أمريكا في هذه السنة بسبب الخمر وحدها ٢,٥ بليون دولار».

أما عدد مَنْ يعاقرُ الخمرة سواء كانوا مدمنين أو غير مدمنين في أمريكا فقد ذكرت جريدة الأهرام القاهرية في عددها الصادر في ٣/ ٥/ ١٩٦٥م: «أنَّ ٧٢ مليون أمريكي. يتناولون الخمور، منهم ٢٠ مليوناً يُكلِّفُون الدولة بليوني دولار كل سنة. السبب تغيبهم عن العمل»[١].

ووصلت حوادث التوقيف والسجن في أمريكا ٤,٩٥٥,٠٤٧ وذلك في عام ١٩٦٥، وإن نصف هذه الحوادث كان بسبب السكر.

أما في عام ١٩٧٦م، فقد بلغت حوادث التوقيف بسبب السكر الشديد في الأماكن العامة مليونين من أصل ثلاثة ملايين[٢].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام للشيخ عبد الله علوان ١/ ٢٣٦، ط٢، دار السلام، بيروت، حلب.

(٢) الخمر بين العلم والدين ص١٣١.

وعيد لمن يشربها:

توعَّدَ رسول الله ﷺ من يشرب الخمرة بعذاب مهين في جهنم: فقد شبَّه شاربها بعابد وثن، وإن الجنة محرمة عليه، وهدَّدَهُ مرةً بنزع الإيمان من قلبه، وَحَكَم عليه مرةً أخرى، بأنه خَلَعَ ربقةَ الإسلام من عنقه إلا أنْ يتوب، وحكمَ مرةً على شاربها وعاصرها ومعتصرها وكُلِّ مَنْ تسببَ فيها بالطرد من رحمة الله! وهذه أحاديث نبوية شريفة صَرَّحَتْ بهذا. قال ﷺ: «مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابِد وثن»(١).

«ثلاثة حرّمَ الله تبارك وتعالى عليهم الجنة: مدمنُ الخمر، والعاق، والديوث الذي يُقِرُّ في أهله الخبث»(٢).

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يَسْرقُ السارقُ حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن»(٣).

«مَنْ زنى أو شَرِبَ الخمرَ نَزَعَ اللهُ منه الإيمان، كما يخلعُ الإنسانُ القميصَ من رأسه»(٤).

«يشربُ ناسٌ من أمتي الخمر يُسَمُّونها بغير اسمها، يُضْرَبُ على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يَخْسِفُ اللهُ بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»(٥).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَعَنَ رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصِرَها ومعتصِرَها، وشارِبَها، وحامِلَها، والمحمولَة إليه، وساقيَها، وبائعَها، وآكِلَ ثمنها، والمشتريَ لها، والمشترى له»(٦).

---

(١) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه الإمام أحمد واللفظ له، والنسائي والبزار والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داؤد والترمذي والنسائي.

(٤) رواه الحاكم.

(٥) رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه.

(٦) رواه ابن ماجه والترمذي واللفظ له، وقال: حديث غريب. قال الحافظ: ورواته ثقات.

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اجتنبوا أمَّ الخبائث، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة، فأرسلت إليه خادماً: إنا ندعوك لشهادة، فدخل، فطفقت كلما يدخل باباً أغلقته دونه، حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلامٌ وباطيةٌ فيها خمر، فقالت: إنا لم ندعك لشهادة، ولكنْ دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تقعُ عليَّ، أو تشربُ كأساً من الخمر، فإن أبيتَ صحتُ بك وفضحتك: قال: فلما رأى أنه لا بدَّ له من ذلك قال: أسقيني كأساً من الخمر، فسقته كأساً من الخمر، فقال زيديني، فلم تَزَل حتى وقع عليها وقتلَ النفس؛ فاجتنبوا الخمر؛ فإنه والله لا يجتمع إيمانٌ وإدمانُ الخمر في صدر رجل أبداً، وَليُوشِكنَّ أحدهما يُخرِجُ صاحِبَهُ»[1].

العلماء الغربيون والخمر:

وقف عدد ليس بالقليل من علماء الغرب وفلاسفته ومفكريه موقفاً حاسماً في محاربة شرب الخمرة، بعد أن ثبتَ لهم أنها تؤدي إلى تعطيل عقل شاربها عن وظائفه، وهذا التعطل لا يصيب جزءاً واحداً من أجهزة الإنسان بالخلل والاضطراب، بل يُصيبُ أجهزة الإنسان كلَّها. وهذه قسم من أقوال علمائهم:

قال الدكتور (شرومف) الشهير: «إن علماء هذا العصر الذين درسوا نحول (ضعف) الأمراض في الشرق، وبوجه عام في البلدان التي أكثرية سكانها من المسلمين، مجمعون رأياً على أن سببها الرئيس هو: نهي الدين الإسلامي للمسلمين عن شرب المشروبات الروحية. وإذا وُجِدَ في البلدان المسيحية من يخامره شك في خطورة النتائج التي تنشأ من تعاطي المشروبات الروحية، فما

(١) رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له، والبيهقي مرفوعاً مثله وموقوفاً.

عليه إلا أن يَذْهَبَ بنفسه إلى البلدان الإسلامية ليقتنعَ بذلك، لأنه حالما يبدأ المسلمُ الشرقي بشرب المشروبات الروحية، تأخذ قوةُ مقاومته للأمراض تنقص تدريجاً؛ فلذلك يسهل فهم الضربة التي جاءت مع الحضارة التي يسمونها (الحضارة الأوربية)[1]».

وجاء في تقرير اللجنة الطبية الانكليزية ما يأتي:

«إنَّ التجارب دلت على أن تعاطي الشراب بكثير أو بقليل، مما يُخِلُّ نظامَ الحركة البدنية، ويعمل على إضعاف القوة العضلية. كما يفضي في الوقت عينه إلى إتلاف المواهب العقلية. وإن الجرعة البسيطة (القليلة) التي يظن البعض أن لا تأثيرَ لها حيث يقوم العامل بعمل عادي بسيط تظهر ذات أثر سيئ إذا ما عرضت مهمة تطلب التؤدة والروية، أو كان العمل مما يقتضي شيئاً من الدقة والضبط، أو يحتاج إلى بعض التأملات الخصوصية»[2].

وقال رجل الانكليز (غلادستون): «إن كروب الحرب ونكبات الأوبئة ومصائب المجاعات لهي أقل بطشاً وفتكاً، وأخف وطأةً وهولاً مما يصيب البلاد من بلاء المسكرات»[3].

وقال هنري دي كاستري: «إنّ أحدَّ سلاح يُستأصل به الشرقيون، وأمضى سيفٍ يُقتل به المسلمون هو: الخمر وإدخالها عليهم. ولقد جرَبنا هذا السلاح على أهل الجزائر حين دخلناها؛ فأبت شريعتهم الإسلامية أن يتجرعوه، فتضاعف نسلهم وكثر عددهم. ولو أنهم استقبلونا كما استقبلنا

---

(١) حكمة التشريع وفلسفته للشيخ علي أحمد الجرجاوي ٢/ ٢٦٧-٢٦٨، الطبعة الرابعة.
(٢) حكمة التشريع وفلسفته ٢/ ٢٦٨.
(٣) حكمة التشريع وفلسفته ٢/ ٢٧١.

قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا: كتلك القبيلة التي شربت خمرنا وتحملت إذلالنا»[1].

وسئل (إيمرسون): لماذا لا تشرب المسكر؟

فأجاب: «إنني بحاجة إلى رأسي لأستعمله لشيء أفضل وأجزلَ نفعاً. فلمثل هذه الغايات النبيلة وَهَبنا اللهُ أجساماً قوية وعقولاً مفكرة»[2].

ولقد قال طبيب ألماني: اقفلوا لي نصف الحانات أضمنْ لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والسجون.

وقال الدكتور (بيتر برنت) في الكتاب الذي أصدرته الكلية الملكية للأطباء بلندن باسم .Topics in Therapeutics Vol. IV 1978 مواضيع في العلاج: الجزء الرابع ١٩٧٨:

«لم يكتشف الإنسان شيئاً شبيهاً بالخمور في كونها باعثة على السرور (الوقتي)، وفي نفس الوقت ليس لها نظير في تحطيم صحته وحياته. ولا يوجد لها مثيل في كونها مادةً للإدمان، وسماً ناقعاً، وشراً اجتماعياً خطيراً»[3].

وقال المؤرخ العالمي (أرنولد توينبي) في كتابه (محاكمة الحضارة): Civilization on Trial:

«إن الروح الإسلامية تستطيع أن تحرر الإنسان من ربقة الكحول عن طريق الاعتقاد الديني العميق. والتي استطاعت بواسطته أن تحقق ما لم يمكن

---

(١) الخمر وسائر المسكرات تأليف أحمد بن حجر آل بوطامي ص٨٩، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، الدار السلفية، الكويت.

(٢) الكحول والمسكرات والمخدرات تأليف لبيب بيضون ص٨٦، دار ابن زيدون، دمشق.

(٣) الخمر بين الطب والفقه للدكتور محمد علي البار، ص٨٣.

للبشرية أن تحققه في تاريخها الطويل. ولقد استطاع الإسلام أن يحقق ما لم تستطع أن تحققه القوانين المفروضة بالقوة ومن خارج النفس. وها هنا نقول:

إن الإسلام يستطيع أن ينقذ الإنسانية من تأثيرات المجتمعات المدنية الغربية التي بثت شباكها في أنحاء العالم أجمع»[1].

عقلاء يُحرِّمون الخمر على أنفسهم:

وهناك عدد من عقلاء الناس في المجتمع الجاهلي وغيره امتنعوا عن شرب الخمرة؛ لما رأوا من أضرارها الكبيرة. من هؤلاء (العباس بن مرداس السلمي) فقد قيل له: لِمَ لَمْ تشرب الخمر؟

فقال: ما كنتُ لآخذ جهلي بيدي وأدخله في جوفي. ما كنت لأصبحَ رئيسَ قومٍ وأمسي سفيههم. قال ذلك وهو في خضم الجاهلية الجهلاء.

وهذا جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسأل: لِمَ حرمتَ الخمرَ على نفسك في الجاهلية وقد كانت مباحة؟

فيجيب: لأني رأيتُ الكَمَلَةَ يزيدون في عقولهم، وشاربُ الخمر يسعى في زوال عقله فتركتها لذلك.

وهذا عدي بن حاتم الطائي يسأله سائل: مالكَ لا تشرب الخمر.؟ فيجيبه: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تروي عنه السيدةُ عائشة فتقول:

«حرَّم أبو بكر الخمر في الجاهلية: فلم يشربْها في جاهليةٍ ولا إسلام؛ وذلك أنه مرَّ برجل سكران، يضع يده في العذرة ويُدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صَدَفَ عنها؛ فحرَّمها أبو بكر على نفسه» رواه أبو نعيم.

---

(١) الخمر بين الطب والفقه للدكتور محمد علي البار، ص٩٣.

وهذا عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول له قائل: ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ولا حَرَجَ عليك فيها؟

فيرد عليه قائلاً: إني رأيتها تذهب العقلَ جملة، وما رأيت شيئاً يذهب جملة ويعود جملة.

وهذا قيس بن عاصم المنقري كان يأتيه في الجاهلية تاجر يبيع الخمور فيشتري قيس منه. ويظل البائعُ في جواره حتى يبيعَها كلَّها. فشرب قيس مرة فسكر؛ فجذب ابنته وتناول ذؤابتها، ورأى القمر فتكلّم بشيء. وبعد أن أفاق أنشأ يقول:

من تاجرٍ فاجرٍ جاء الإله به ... كأنَّ لحيته أذناب أجمالِ
جاء الخبيث بِبَيْسانيةٍ تركتْ ... صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال

ومما يحكى أن رجلاً شرب الخمرة فزال عقله. فدعا مجنوناً ليشرب معه؛ فقال له المجنون: أنت تشرب الخمر لكي تصير مثلي، فأنا أشرب لأصير مثلَ مَنْ؟!!

وقبل هؤلاء أوصى (قصي بن كلاب) بنيه فقال:

اجتنبوا الخمر؛ فإنها تفسد الأذهان.

وقال صفوان بن أُمية:

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها ... خصالٌ تفضحُ الرجلَ الحليما
فلا والله أشربها صحيحا ... ولا أسقي بها أبداً سقيما
ولا أُعطي لها ثمناً حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديما
فإنَّ الخمر تفضحُ شاربيها ... وتورثهم بها الأمرَ العظيما

وقال ابن الوردي:

واهْجُـر الخمـرةَ إنْ كنـتَ فتـىً ... كيف يسعى في جنون من عَقَـل؟!

وقال آخر:

لا تشربِ الخمرَ ما دمتَ الفتى أبداً ... لا فـرقَ مـا بـين مجنـونٍ وسـكرانِ

فـالخمرُ مُذْهِبَـةٌ للمـال مُفْقِـرَةٌ ... للعقـل، منقِـصَةٌ مـن رفعـةِ الـشأنِ

وقال الشيخ زكي الدين سند:

ليس التمدنُ شربَ الخمر بالكاس ... إنَّ التمدنَ حُسْنُ الخُلْق في النـاسِ

لـيس التمـدنُ هجـرانَ الـصلاة ولا ... تـركَ الـصيام، ولا مـيلاً لخنَّـاس

لـيس التمـدن في شـكل الفـرنج ولا ... في هتك عرضٍ، ولا في فعل ارجاس

إن التمـدن في سـير الكمـال علـى ... نهـج الـشريعة طـولَ الـدهرِ يـا ناسـي

وبعد:

فعلى الرغم مما تمتلكه (أوربا وأمريكا) من حكماء وعلماء وأطباء، فإنها لم تستطع أن تقتلعَ داءَ الإدمان على الخمر، بل إن هذا الداء العضال يُنذِرُ بشر مستطير؛ إذ تنص الإحصائيات على أن المدمنين في الولايات المتحدة الأمريكية صار عددهم مذهلاً، وكذلك في بريطانيا. هذا العدد الكبير لا يستطيع فرد من أفراده أن يتخلى عن الخمر يوماً واحداً، بل لا يستطيعون العيشَ دونه! ولا تَسَلْ عن حالتهم النفسية والصحية كيف أصبحت في حالة لا يحسدهم عليها حاسد. ولم تستطع مبتكراتهم العلمية، ولا تقدمهم التقني إيجاد حلّ لهذا الانتحار المحتَّم الذي يسير إليه هؤلاء الذي ضلوا الطريق، وتنكبوا عن الصراط المستقيم!

إنَّ البشرية لم تستطع أن تشهد عبرَ تاريخها الطويل علاجاً صحيحاً ناجحاً لمشكلة الإدمان على الخمر إلَّا مرةً واحدةً في التاريخ: وذلك حين

نزول تحريم الخمر الذي تحدثنا فيه «نزل تحريمُ الخمر والكؤوسُ المتدفقةُ على راحاتهم؛ فحال أمرُ الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة، وكُسِرَت دنانُ الخمر فسالت في سكك المدينة»[1].

وإذا كانت البلادُ الإسلاميةُ قد عافاها اللهُ مما ابْتُلِيَتْ به بلادٌ غيرُ إسلامية من وباء الإدمان على الخمر؛ إذ كانت نسبةُ الإدمان فيها أقل بكثير من نسبة الدول الغربية والأمريكية وغيرها. فإن ذلك لم يكن بسبب وجود مؤسسات متخصصة: تُعنى بمكافحة الإدمان على الخمر، ولا بسبب قوانين صارمة تُنَفَّذُ في حقِّ من يقوم بشربها.

لم يكن سبب قلة الإدمان هذا ولا ذاك، بل الفضل في ذلك للإسلام الذي نصَّ نصاً صريحاً واضحاً في تحريمه.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما كانت لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ. إني لقائم أسقيها أبا طلحة وأبا أيوب ورجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ في بيتنا؛ إذ جاء رجل فقال: هل بَلَغَكُم الخبر؟ قلنا: لا. قال: فإنَّ الخمر قد حُرِّمت؛ فقال: يا أنس، أرِقْ هذه القلال. قال: فما راجَعُوها، ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل[2].

اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام!

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص٩٩ الطبعة الحادية عشرة ١٣٩٨هـ، دار السلام، بيروت، حلب.

(٢) رواه مسلم ٣/ ١٥٧١.

العلاج النفسي
في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يبلغني رضاه والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، و على آله الطيبين، وصحبه المخلصين، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن التقدم الحضاري في كل جانب من جوانب الحياة في العالم خطا خطوات واسعة، فخلص الإنسان من كثير مما كان يعانيه من الإرهاق البدني والتعب والنصب.. لكن هذا العلم لم يتمكن إلى يوم الناس هذا من أن يخلص الإنسان مما يعانيه من (التيه) و(الضياع) و(الشقاء) والأمراض النفسية التي كثر صرعاها، وازدادت زيادة مذهلة ـ وبخاصة في قرننا العشرين ـ ولقد فتش الناس عن الدواء الناجع الذي يستأصل الداء أو يقلل من صرعاه على أقل تقدير فلم يجدوه، على الرغم من التقدم الحضاري الذي ضرب أَطنابه في كل جانب من جوانب الحياة.

وهذا البحث المتواضع يتحدث في (العلاج النفسي في القرآن الكريم) الذي غفل عنه الكثير من الباحثين والعلماء النفسيين. وقد اتجه بعض من علماء الطب الحديث إلى الاهتمام به، بعد أن أخفق الطب الحديث ووقف عاجزاً أمام ذلك الداء العضال الذي باتت تشكو من ويلاته مجتمعات كثيرة هنا وهناك، وبخاصة المجتمعات التي ضربت بسهم وافر في التقدم الحضاري المادي.

والله اسأل أن يجعل عملي هذا وغيره من الأعمال خالصاً لوجهه الكريم.

والله يقول الحق ومنه ـ وحده ـ الهداية والسداد.

العلاج النفسي في القرآن الكريم

للقرآن الكريم قوة روحية تؤثر تأثيراً كبيراً في النفس الإنسانية. ولا عجب فإنه كلام الله الذي استطاع في فترة وجيزة من الزمن أن يغير طبائع الناس وسلوكهم وطريقة تفكيرهم. وقد نص الله عَزَّوَجَلَّ على أنه شفاء ورحمة وهدى للمؤمنين وإنه يهدي للتي هي أقوم. قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وهذه الآيات الكريمات تحدد أثر القرآن في نفوس الناس: فهو لمن آمن به هداية تهديه إلى الصراط المستقيم، فتتخلص نفسه من الحقد والغل، والحسد والأثرة، والاعوجاج في السلوك... وهكذا يصح البدن إذا صحت النفس. وصحة النفس تكون في صفائها ونقائها، فيكون القرآن شفاءً للنفس ورحمة لها ونعمة عليها.

لقد كانت الجهود التي بذلت في الدراسات النفسية كثيرة كثيرة. وظهرت أساليب مختلفة في العلاج النفسي. بيد أن هذه الدراسات لم تحقق النجاح المرجو في القضاء على الأمراض النفسية، بل إن هذه الأمراض يزداد صرعاها يوماً بعد يوم، كما أن الدراسات ـ أيضاً ـ لم تحقق نجاحاً كبيراً في الوقاية من تلك الأمراض النفسية: (فقد بينت بعض الدراسات أن معدلات الشفاء بين المرضى النفسيين الذين يعالجون بطريقة التحليل النفسي تتراوح بين ٦٠٪ و٦٤٪. وهي معدلات غير مرضية إذا أخذنا في اعتبارنا أن معدلات

المرضى النفسيين الذين يتخلصون من أمراضهم من غير أن يتلقوا أي علاج نفسي تتراوح بين ٤٤٪ و٦٦٪. أضف إلى ذلك أن بعض المرضى كانت تسوء حالتهم بعد العلاج النفسي. وفي دراسة أخرى تبين أن المرضى النفسيين من المجموعة الضابطة التي لم يتلق أفرادها أي علاج نفسي قد أظهروا تحسناً مساوياً للتحسن الذي أظهره المرضى الذين عولجوا نفسياً. كما بينت الدراسة ـ أيضاً ـ أن بعض هؤلاء المرضى الذين عولجوا قد ازدادت حالتهم سوءاً)[1].

ويقول الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة (نوبل):

«من العجيب أن الأمراض العقلية أكبر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة. ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم. ويقول س. وبيرس: (إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر)»[2].

لقد أخفق علماء النفس في معالجة تلك الأمراض التي انتشرت في المجتمعات الغربية انتشاراً واسعاً، وأخذت بتلابيبه وضيقت عليه الخناق. ولكن ما سبب ذلك الإخفاق؟

الإيمان أولاً:

يجيب عن ذلك الدكتور (بول أرنست أدولف) الأستاذ المساعد في التشريح بجامعة (سانت جونس)، وعضو جمعية الجراحين الأمريكيين فيقول:

---

(١) علم الأمراض النفسية والعقلية تأليف ريتشارد.م. شوين ص٨٦٤ ترجمه: أحمد عبد العزيز سلامة. دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٩م. وانظر: القرآن وعلم النفس للدكتور محمد عثمان نجاتي ص٢٣٨، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

(٢) الإيمان والحياة للأستاذ يوسف القرضاوي ص٣٢٤، الطبعة الخامسة ١٩٧٧م، مطبعة الاستقلال، القاهرة.

«إن كثيراً من المشتغلين بالعلاج النفسي قد ينجحون في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يسبب المرض، ولكنهم يخفقون في معالجة الاضطرابات، لأنهم لا يلجأون في علاجها إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى»[1].

ولعل اتجاه علماء النفس نحو تبني نظرة الدين في علاج الأمراض النفسية أو الوقاية منها قد ازداد يوماً بعد يوم بسبب ذلك. فإن الإيمان الصحيح بالله يمد الإنسان بقوة عظيمة وطاقة روحية هائلة، تجعله يقف بقوة وحزم أمام ما يلاقيه من مشقات الحياة، وتجنبه ـ في الوقت نفسه ـ ذلك القلق الذي صار سمة من سمات هذا العصر. يقول المحلل النفسي كارل يونج Carl G.Jung:

«استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أناس من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجت مئات كثيرة من المرضى. فلم أجد واحداً من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم ـ أي جاوزوا سن الخامسة والثلاثين ـ من لم تكن مشكلته في أساسها: هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة. وأستطيع أن أقول: إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض، لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها، وإنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة»[2].

ويقول المحلل النفسي أ.أ.بريل A.A. Brill:

«إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً»[3].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين ص١٣٧، الطبعة الثالثة ١٩٦٨م ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان.

(٢) القرآن وعلم النفس ص٢٤٠ نقلاً عن Carl. G. Jung: Modern Man in Search or Asoul London: Routledge Kegan Paul. Lid 1966, p. 264.

(٣) دع القلق وابدأ الحياة تأليف ديل كارينجي ص٢٨٦ ترجمة عبد المنعم الزيادي، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

وذكر عالم النفس الأمريكي (هنري لينك) في كتابه (العودة إلى الإيمان): أنه وجد نتيجة خبرته الطويلة في تطبيق الاختبارات النفسية على العمال في عملية الاختبار المهني والتوجيه المهني، إن الأشخاص المتدينين والذين يترددون على دور العبادة يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين لهم، أو لا يقومون بأية عبادة[1].

ويقول الدكتور (بول أرنست أدولف):

«لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بد أن يشمل الروح والجسم معاً في وقت واحد، وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله وعلمي به. ولقد أقمت تلك الناحيتين على أساس قويم. بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه. ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة. ولقد وجدت في أثناء ممارستي للطب أن تسلحي بالنواحي الروحية إلى جانب إلمامي بالمادة العلمية يمكناني من معالجة جميع الأمراض علاجاً يتسم بالبركة الحقيقية. أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط، فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج، بل قد لا تبلغ هذا القدر»[2].

ونشرت جريدة (الجمهورية) القاهرية تحت عنوان (العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية) قالت:

«لقد بدأت التجربة في مستشفى بولاية نيويورك وهو مستشفى خاص بمرتكبي الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية. بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ،

---

(١) الإيمان والحياة ص٣٤٢.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص١٣٨.

والعقاقير المسكنة والمهدئة للأعصاب. وكانت النتيجة رائعة. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم. بل فقدوا الأمل فيه، انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء. أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم وهم مسلوبو الإرادة باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفهم، ويذرفون الدمع ندماً، وكلهم أمل في رحمة الله ومغفرته»[1].

ويقول الدكتور (الكسيس كاريل): «لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا. وقد رأيت ـ بوصفي طبيباً ـ كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم».

ويقول: «إن الصلاة كمعدن (الراديوم) مصدر للإشعاع، ومولد ذاتي للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود، حين يخاطبون القوة التي لا يفنى نشاطها»[2].

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي:

«إن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جَلَّوَعَلَا. وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به وتتوجه إليه»[3].

ولم يكن علماء النفس والمحلّلون النفسيون والأطباء والعلماء هم الذين توصلوا إلى هذه الحقيقة وحدهم، بل نجد عدداً ليس بالقليل من المفكرين الغربيين المعاصرين ذهبوا هذا المذهب. فهذا المؤرخ (أرنولد توينبي A.Toynbee) ذكر: «إن الأزمة التي يعاني منها الأوربيون في العصر الحديث، إنما ترجع

---

(١) الإيمان والحياة ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢) الإيمان والحياة ص٢٩٢.

(٣) الإيمان والحياة ص٨٦.

في أساسها إلى الفقر الروحي، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه هو الرجوع إلى الدين»[1].

وننظر في الإسلام، فنرى أن الإيمان بالله الذي يملأ قلب المسلم منذ الصغر يكسبه مناعة من الإصابة بالأمراض النفسية: فلا يكون بحاجة إلى هذا أو ذاك من العلاج النفسي.

والقرآن الكريم يشير بكل صراحة إلى أن الإيمان الصحيح بالله يبعث (الأمن) و (الطمأنينة) و(السكون) في نفس المؤمن، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

واطمئنان النفس مصدره الإيمان بالله واليوم الآخر. وليس المراد به استسلام النفس أو استكانتها، أو هربها من الحياة، وإنما المراد به: الرضى بما يقع بعد أن يأخذ بالأسباب.

وهكذا يشعر المؤمن بالسعادة الحقيقية إذا كان قلبه عامراً بالإيمان الخالص من الشوائب الذي لا يكدره مكدر. يقول العلامة (ابن قيم الجوزية) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«في القلب شَعَثٌ لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه

(١) مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام تأليف الأستاذ أنور الجندي ص١٩٥ بتصرف، دار الاعتصام، القاهرة.

فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً»[1].

سكينة النفس:

فلا نعجب إذا علمنا أن أكثر الناس قلقاً واضطراباً: هم أولئك الذين لم يلامس الإيمان شفاف قلوبهم. أولئك الذين حرموا من برد اليقين: فهم لا يدركون للحياة معنى، ولا يشعرون بلذتها ـ ولو كانت غاصة بوسائل الرفاهية كلها ـ يقول طبيب أمريكي لامع:

«وضعت مرةً وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المعترف بها، فكتبت هذا البيان بالرغائب الدنيوية: الصحة، والحب، والموهبة، والقوة، والثراء، والشهرة، ثم تقدمت بها في زهو إلى شيخ حكيم، فقال صديقي الشيخ: جدول بديع، وهو موضوع على ترتيب لا بأس به، ولكن يبدو لي أنك أغفلت العنصر المهم الذي يعود جدولك بدونه عبثاً لا يطاق، وضرب بالقلم على الجدول كله، وكتب كلمتين: (سكينة النفس) وقال: هذه الهبة التي يدخرها الله لأصفيائه، وإنه ليعطي الكثيرين الذكاء والصحة، والمال مبتذل وليست الشهرة بنادرة، أما سكينة القلب، فإنه يمنحها بقدر»[2].

وننظر في المؤمن الصحيح الإيمان مرة أخرى، فنجده إنساناً قوياً في نفسه، لا يخاف شيئاً في هذه الحياة، لأنه يؤمن الإيمان الحق أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه وأنه لا يصيبه الشر أو الأذى إلا بمشيئة الله. وهكذا لا يمتلك الإنسان المسلم الخوف. ويدل على هذا دلالة واضحة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ

(١) الإيمان والحياة ص٨٧.

(٢) الإيمان والحياة ص٨٣.

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

ذكر الله:

ومن وسائل العلاج النفسي في القرآن الكريم ذكر الله، والتأمل في عظمته، وتصور قدرته. وقد أمر الله بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ولقد صرح القرآن الكريم بأن الإعراض عن ذكر الله يؤدي إلى شقاء الإنسان في الدنيا قبل الآخرة قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

ويؤكد القرآن هذا المعنى فيقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

إن الذي يذكر الله ويتأمل في عظمته ويتصور قدرته، يلين قلبه ويخشع فؤاده، ويطأطئ رأسه، فلا يصدر عنه من الأقوال والأعمال إلا ما فيه الخير والصلاح. وهكذا تسري الطمأنينة في نفسه، ولا يكون للهم والقلق إلى قلبه سبيل. وبهذا يتخلص من الأمراض النفسية والجسدية التي قد يصاب بها، ذلك أنّ

الاستغراق في الهمّ والقلق يؤدي إلى أضعاف وظائف الجسم، فيبتلى صاحبها بأمراض جسدية كثيرة، فوق إصابته بالأمراض النفسية.

الإيمان والصبر:

والمؤمن الصحيح الإيمان يصبر ولا يجزع إذا حلت به مصيبة أو نزلت به كارثة، فإنه «يتلقى المكاره بالقبول، ويراها من عند الله. وعند التأمل نرى العناية الإلهية تسوق إلينا الشدائد لحكمة عالية. والجاهل هو الذي يضجر ويحزن ويكتئب. أما العاقل، فيتلمس وجوه الخير فيما يبتليه الله من الشدائد»[1].

ولقد أحب الله الصابرين ومدحهم، وأعلن ما أعدّ لهم يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ويبدو من هذه الآيات: أن الصابرين زودوا بثلاث خصال: صلوات الله عليهم: أي ثناؤه تعالى عليهم، ورحمته بهم بما وضعه في المصيبة من لطف وإحسان، وشهادة لهم من الله بأنهم على الحق والصواب وأنهم مهتدون، فيلاقون المصيبة برباطة جأش وعدم جزع.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

---

(١) التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك ٢/ ١٤٩. وانظر: روح الدين الإسلامي تأليف عفيف عبد الفتاح طبارة ص٢٠٧، الطبعة الثامنة ١٣٨٩هـ، دار العلم للملايين، بيروت.

والصبر قوة عظيمة يستعين بها المسلم فيما يلاقيه من نكبات الزمن ومشقات الطريق لذلك أمر الحكيم الخبير المؤمنين أن يستعينوا به في حياتهم فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وأما أحاديث رسول الله ﷺ فيما أعده للصابرين فكثيرة كثيرة، منها ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّة من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلّا الجنة»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة»(٢).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلّا كفرَّ الله بها من خطاياه (٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»(٤).

وقال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم: فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»(٥).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى).

(٢) رواه البخاري في كتاب المرضى (باب: فضل من ذهب بصره). والمراد بحبيبتيه: عيناه.

(٣) رواه البخاري في كتاب المرضى (باب: ما جاء في كفارة المرض)، ومسلم في كتاب البر (باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن).

(٤) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في الصبر على البلاء)، حديث (٢٣٩٦).

(٥) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في الصبر على البلاء) رقم (٢٣٩٨).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[1].

وبالصبر وما أعدّ الله للصابرين يتغلب المؤمن على الجزع، ويحتسب ما أصابه عند الله، فيتخلص من الأمراض النفسية أو الجسدية التي تصيب غيره ممن لم يتحلّ بالصبر.

الرزق بيد الله:

ولما كان الإنسان مفطوراً على حب المال، فإنه يظل مشغولاً بجمعه والحفاظ عليه. وقد كثرت حوادث الانتحار والإصابة بالجنون والانهيار العصبي. وكثير من هذه الحالات سببه الاصطراع على الرزق، أو الطمع في زيادته، أو الكارثة بفقده وقد جاء في إحصائية نشرتها مجلة (ليديز هوم جورنال): «إن سبعين في المائة من القلق الذي يعانيه الناس مرجعه إلى المال»[2].

والمسلم يؤمن تمام الإيمان أن رزقه بيد الله ـ وبيد الله وحده ـ وأنه تعالى هو الذي قسم الأرزاق بين الناس. إن هذا الاعتقاد لدى المسلم الحق يجعله شجاعاً لا يخشى الفقر، وكيف يخشاه وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وهكذا يكون المؤمن آمناً على رزقه، مطمئناً إلى أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يتركه يموت جوعاً. حتى إن قدر الله عليه أن تكون يده ضيقة، فإنه راضٍ بما قدره الله وقضاه ـ بعد أن يأخذ بأسباب الرزق كلها ـ يقنع بالقليل الذي لديه، ويحمد الله على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب: ما جاء في الصبر على البلاء) رقم (٢٤٠١).

(٢) الإسلام والعلم الحديث تأليف عبد الرزاق نوفل ص١٣٢، دار الإسلام، القاهرة ـ دار الكتاب العربي، بيروت.

أجَل المؤمن:

والمؤمن الصادق الإيمان يوقن أن له عمراً محدداً لا يزيد ولا ينقص: فلا يستطيع أحد أن يقدّم من أجله ساعة أو يؤخره.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

المؤمن والموت:

والمؤمن الصادق لا يخاف الموت ولا يخشاه، لأنه يعلم أين تصير نفسه بعد الموت، وأي شيء يقدم عليه: فهو ينظر إلى الموت على أنه حقيقة لا مفر منها.

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ولقد فهم سلف هذه الأمة هذه العقيدة السليمة وآمنوا بها، فعاشوا في كنف الطمأنينة والسكينة، ويتجلى شيء من ذلك بما كان من الحجاج بن يوسف الثقفي، فإنه لما هدد سعيد بن جبير بالموت، أجابه سعيد: لو علمت أن الموت والحياة في يدك ما عبدت إلهاً غيرك!

وبهذا الإيمان العميق يُلْقي المسلم عن كاهله هماً من أكبر الهموم: إنه هم الحرص على الحياة، لأنه يعلم أن الموت إنما هو انتقال من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي. ولقد قيل لأعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت! فقال: وإلى أين يُذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله: فقال: ويحكم! أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟!

وهكذا ينظر المؤمن إلى الموت على أنه انتقال من حياة إلى حياة، ومن دار إلى دار، وإن الإنسان حين يموت تنقطع نفسه عن بدنه فتصعد إلى الله. وما مثل النفس والجسد إلا كمثل الإنسان الذي أصاب ملابسه الدنس فنزعها، ويظل الإنسان حياً كما هو. النفس كالإنسان والجسد كملابس الإنسان. وقد روي أن أحد الذين عرفوا بالصلاح لما أحس بدنو أجله قام فاغتسل وتطيب وصلى ركعتين. وبعد فترة وجيزة دخلوا عليه فوجدوه قد مات وهو مستقبل القبلة، وعند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات:

قـــل لإخـــوان رأوني ميّتـــاً ... فبكـــوني ورثـــوني حزنـــا
أتظنـــون بـــأني ميْـــتكم ... لـــيس هـــذا الميـــت والله أنـــا
أنـا في الـصور وهـذا جـسدي ... كـــان ثـــوبي وقميـــصي زمنـــا
أنـــا عـــصفور وهـــذا قفـــصي ... طـــرت عنـــه وبقـــى مرتهنـــا
أحمـــد الله الـــذي خلـــصني ... وبنـــى لـــي في المعـــالي مـــسكنا
لا تظنـــوا المـــوت موتـــاً إنـــه ... لـــيس إلا نقلـــة مـــن هاهنـــا

الإيمان بالقضاء والقدر:

والمؤمن الصادق الإيمان يؤمن بالقضاء والقدر. وإيمانه بذلك يجنبه الإصابة بالأمراض النفسية فهو يوقن أنّ ما يصيب الإنسان في هذه الحياة الدنيا إنما هو امتحان واختبار له، لذلك فهو يصبر ويتحمل الأذى ولا يجزع إذا مسه الشر، ولا يطغى إذا أصابه الخير.

ورسول الله ﷺ يقول: «عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله له خير ـ وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن ـ إنْ أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»[1].

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: المؤمن أمره كله خير).

والمؤمن يقف هذا الموقف، لأنه يعلم أن ما قدره الله على الإنسان ليس عبثاً، وأن المصائب التي تحل به هي في حقيقة الأمر دروس يلقيها العليم الخبير على بني الإنسان، فتتهذب نفوسهم، ويذهب صدأ قلوبهم. وقد روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «ما أصبت في دنياي بمصيبة إلا رأيت لله عليّ فيها ثلاث نعم: أنها لم تكن في ديني، وأنها لم تكن أكبر منها، وأنني أرجو ثواب الله عليها»[1].

والمسلم يأخذ بالأسباب لئلا يقع المكروه، ولكن حين يقع يرضى بما وقع، وهذا الرضا يوصله إلى الراحة النفسية التي تدفع عنه أمراضاً عديدة ومصائب كثيرة: فإنّ عدم الصبر على المصيبة إنما هي مصيبة أخرى فوق مصيبته التي نزلت به. فإذا خسر الإنسان في تجارته فقد يعتبر خسارته مصيبة، فإذا حزن على خسارته حزناً شديداً فتصير المصيبة مصيبتين: خسارة وألماً!

ولقد أدرك كثير من المفكرين والفلاسفة الغربيين فائدة الرضا بالقضاء والقدر لدى المسلم فقال ف.س. بودلي تحت عنوان (عشت في جنة الله):

(في عام ١٩١٨م أوليت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر افريقية الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو؛: وكنت ارتدي زيهم، وآكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم، أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى انني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول). وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضا بالحياة.

---

(١) انظر كتابنا إيماننا الحق بين النظر والدليل ص٢٧٥، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. مطبعة الزهراء، الموصل.

وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق. فهم ـ بوصفهم مسلمين ـ يؤمنون بالقضاء والقدر. وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً. فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق على أمر، إنهم يؤمنون بأنّ ما قدر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له. وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا، وَدَعْني أضرب مثلاً لما أعنيه:

هبَّت ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصحراء، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأنّ رأسي ينتزع من منابته لفرط وطأة الحر. وأحسست من فرط القيظ كأني مدفوع إلى الجنون، ولكنّ العرب لم يشكُوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم وقالوا كلمتهم المأثورة [قضاء مكتوب]. ولكنهم ما إن مرّت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير: فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء. فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى. قال رئيس القبيلة لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد»[1].

وهذه الحقيقة أقر بها المفكر الألماني (جيته)، فهو يرى: «إن عقيدة القضاء والقدر عند المسلمين التي تعني أن لا يصيبهم أمر لم يقدره الله الذي يدبر الأمر بإرادته منذ الأزل ـ تحملهم على مقاومة صروف الدهر في حياتهم، وهم مستريحون لقضاء الله وقدره»[2].

---

(١) الإيمان والحياة ص١٣٢-١٣٣.

(٢) محاضرات في الثقافة الإسلامية للأستاذ أحمد محمد جمال ص١٢، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، دار الفكر بيروت، ومكتبة الثقافة في مكة المكرمة.

وحين يؤمن المسلم بالقضاء والقدر، فإنه يمتثل بذلك لما أمر به القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»(١).

ومن دعاء رسول الله ﷺ قوله: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبَرْدَ العيش بعد الموت»(٢).

ولما آمن سلفنا الصالح إيماناً صحيحاً بهذه العقيدة، انقلبت حالهم إلى راحة وطمأنينةٍ في كل حال، فصار عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لا أبالي على أيها أُصبح أو أُمسي: على ما أحب، أو على ما أكره لأنني لا أدري أيهما خير لي»(٣).

ويقول الحسن البصري: «لا تكرهوا النقمات الواقعة، والبلايا الحادثة، فَلَرُبّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك»(٤).

وربما كان الحسن البصري قد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (باب: في الأمر بالقوة وترك العجز)، وابن ماجه في كتاب القدر.

(٢) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص٨٠٢، الطبعة الثانية، دار القلم: دمشق، بيروت.

(٤) القضاء والقدر للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص٢٢٧، دار المعرفة، بيروت.

الإحساس اللاشعوري بالذنب:

إذا كان الكثير من المصابين بالأمراض النفسية يشعرون بالقلق الذي ينشأ عن الإحساس اللاشعوري بالذنب، فإن المؤمن قد يتخلص من ذلك القلق لأسباب كثيرة، منها: إنه يراقب الله في أقواله وأعماله كلها فتقل أخطاؤه، وهو لا يستجيب للإغراءات التي تدفعه إلى ارتكاب المحرمات بسهولة، فإنه يجاهد نفسه ويجاهدها حتى يتمكن من التغلب عليها.

على أنه حتى لو أخطأ ووقع في الإثم، فإنه يتوب إلى الله ويستغفره، وهو يعلم أن الله يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويصفح عن الزلات، متذكراً قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

على أن المؤمن يوقن أيضاً: إن الحسنات يذهبن السيئات، وإن الرسول ﷺ يقول: «واتبع السيئة الحسنة تمحها»[1].

إن اعتراف المؤمن بما ارتكبه من ذنب، وتوبته منه توبة صادقة، تقيه وتخلصه من فكرة الذنب التي تشغله، وتسبب له ما تسبب من آلام نفسية وتوتر، وتعمل على وقايته من الكبت اللاشعوري بالذنب الذي يسبب القلق وبعض الأمراض النفسية.

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

وهذا ـ ولا ريب ـ لون من ألوان العلاج النفسي الذي صار الطب الحديث يستعين به في العلاج. يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل:

«قرر علماء النفس ـ وعلى رأسهم فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي ـ أنّ كافة الأمراض النفسية ترجع إلى الكبت الذي يسبب عقداً نفسية لا شفاء منها إلا بما يسمونه التحليل النفسي الذي يتم بأن يجلس الإنسان في عيادة الطبيب النفساني، ويعترف أمامه بأخطائه. وهذا الاعتراف يقول عنه الأطباء: إنه صفة منطقية نفسية سلوكية تكشف عن أخطاء المريض، فيراها ويشعر بها، فتحدث مهادنة بين النفس والضمير. فيتسامح الضمير. وإذا ما تسامح الضمير، واستشعر الإنسان العفو منه والصفاء بينه وبين النفس. زالت العقدة النفسية، وعاد الإنسان إلى حالته الطبيعية. هذا والعقد النفسية ليست وهماً، وليس ما تسببه من أمراض وهماً، كما أنّ الألم والظواهر التي تصاحب هذه الأمراض إنما هي أشد من الأمراض العضوية وتماثلها في الأعراض. وكثيراً ما تسبب هذه العقد الصداع واضطرابات القلب وأمراض الضغط العالي وغيرها من الأمراض. وإذا كان علاجها هو الاعتراف بالخطأ أمام الطبيب ليتسامح الضمير. فأي فرق بين الاعتراف أمام الله وأمام الطبيب؟ وأي فرق بين غفران الله وتسامح الضمير»[1].

تجارب رائعة:

هناك تجارب رائعة قام بها بعض من الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية حول تأثير ترتيل القرآن الكريم في المرضى مسلمين وغير مسلمين، وسواء أكانوا يعرفون اللغة العربية أم يجهلونها، وما حصل لهؤلاء المرضى من تغيرات نفسية وعضوية (فسلجية).

(١) الإسلام والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص١٣٦-١٣٧.

١ ـ أجرت الجمعية الطبية الإسلامية بمدينة (بنما سيتي) بولاية (فلوريدا) بأمريكا تجربة أجرتها على ٥ خمسة أشخاص ليسوا بمسلمين ولا ينطقون بالعربية ٣ منهم ذكور، ومتوسط أعمارهم ٢٢ سنة وكانت التجربة ما يأتي:

أ ـ تجارب استماع:

١ -٨٥ جلسة استماع لقراءات قرآنية باللغة العربية بطريقة التجويد.

٢-٨٥ جلسة استماع لقراءات غير قرآنية باللغة العربية بطريقة التجويد باختيار الفظ والصورة والإيقاع، ليكون مشابهاً لما في القرآن.

ب ـ تجارب صمت:

فقد تمت ٤٠ جلسة استرخاء مشابهة لجلسات الاستماع، ولكن بدون تلاوة أي قراءات، ولكن عندما وجد الباحثون أن جلسات الصمت لم تأتِ بأية نتائج إيجابية على التوتر، تغيّر مسار البحث، وأصبحت المقارنة بين نتائج جلسات الاستماع للقراءات القرآنية وغير القرآنية، مع مراعاة تغيير الترتيب بين القراءات دون إعلام المستمع. وكان معيار النتائج تهدئة النفس، اعتماداً على مؤشرات التغييرات الفسيولوجية الآتية:

١ ـ قابلية الجلد للتوصيل الكهربائي، ودرجة حرارة الجلد والدورة الدموية بالجلد.

٢ ـ التيارات الكهربائية بالعضلات التي تعكس ردود الفعل العصبية.

٣ ـ عدد ضربات القلب وضغط الدم.

٤ ـ الفحص النفسي المباشر.

وجاءت النتائج مؤكدة أن تلاوة القرآن يصحبها تغيرات فسيولوجية ملموسة ولا مجال فيها للإيحاء حيث أشارت النتائج إلى:

١ -٦٥٪ تأثير إيجابي (تهدئة النفس) في جلسات الاستماع القرآنية.

٢ -٣٥٪ تأثير إيجابي (تهدئة النفس) في جلسات الاستماع غير القرآنية [١]؟

٢ ـ مع الجمعية الطبية الإسلامية:

نشرت مجلة الجمعية الطبية الإسلامية في شمال أمريكا مقالاً للدكتور أحمد القاضي مدير معهد الطب الإسلامي في (بنما سيتي) في ولاية (فلوريدا) في أمريكا حول (الطب البديل)، فقال تحت عنوان (تطبيق جديد للمعالجة بالقرآن الكريم)[٢]:

«وجدنا أن الإصغاء لآيات القرآن الكريم له علاقة مباشرة بتقليل التوترات والانفعالات النفسية، وكذلك له علاقة غير مباشرة ـ وربما مباشرة أيضاً ـ لتحفيز الجهاز المناعي للجسم الذي له دور فعال في عملية الشفاء. وهذا التأثير بسماع كلام الله المبارك وآياته يحصل حتى لأولئك المرضى الذين لا يفهمون شيئاً من اللغة العربية، فضلاً عن الذين يفهمونها ويعرفون شيئاً من معاني القرآن! ولكن تأثيره يكون أكثر في الذين يدركون معاني القرآن».

ويشير الدكتور القاضي في مقاله هذا إلى دراسته الأخيرة التي قام بها في هذا الشأن. وقد أشار بها إلى مصادر سابقة لأبحاث نشرت أو ألقيت في مؤتمرات طبية حول هذا الموضوع فيقول:

«توصلنا إلى وجود فائدة كبيرة وتأثير عظيم بمساعدة المرضى للتخلص من أعراض أمراضهم النفسية السلبية التي يعانون منها وقد ثبت علمياً أنها

---

(١) نقلاً عن كتاب رحلة الإيمان في جسم الإنسان للدكتور حامد أحمد حامد، ص٢٤٠-٢٤١، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، دار القلم، دمشق.

(٢) نشر المقال في العدد الرابع من المجلد ٢٨ الصادر في الشهر العاشر (تشرين الأول ـ اكتوبر) سنة ١٩٩٦م في الصفحتين ١٦٤-١٦٥. وقد طلبت من أخي الدكتور محمد جميل الحبال أن يقوم بترجمة المقال فترجمه لي مشكوراً.

تؤدي إلى تثبيط وتقليل فعالية الجهاز المناعي للجسم. وهذه الأعراض تكون دائماً متلازمة مع الأمراض المزمنة والمستعصية. وهذا الجانب من الشفاء بوساطة سماع القرآن الكريم له دور إيجابي في تقوية وتنشيط الجهاز المناعي للجسم. وهو يساعد بدوره على التغلب على هذه الأمراض».

٣ ـ التأثيرات الفسلجية للقرآن على الإنسان:

قال الدكتور أحمد القاضي في بحث له نشر في مجلة (الجمعية الطبية الإسلامية) في شمال أمريكا، وألقي في مؤتمرات طبية عديدة تحت عنوان (التأثيرات الفسلجية للقرآن على الإنسان).

إن للقرآن الكريم تأثيراً علاجياً فهو (شفاء) كما ورد في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولكن كيف تكون آيات القرآن (شفاءً)؟ هل هو تأثير نفسي روحي، أم هو تأثير عضوي فسلجي؟

والحقيقة أنه مزيج من هذا وذاك فهو (شفاء) روحي وعضوي. ولمعرفة ذلك قمنا بدراسة التغيرات الفسلجية المهمة على جسم الإنسان أثناء سماعه لآيات القرآن الكريم على مجموعة من الأشخاص الأصحاء أولاً، ومجموعة من المرضى ثانياً. وقد قمنا بوصلهم بأجهزة ذات تقنيات عالية لقياس المتغيرات الفسلجية الآتية:

١ ـ جهاز PPG لقياس Vasomotor Responses من خلال قياس درجة حرارة الجلد والتغذية الدموية فيه.

٢ ـ جهاز Skinconductivity لمعرفة نشاط الغدد الدرقية للجلد ونسبة التعرق فيه.

٣ ـ جهاز EMG لقياس درجة ارتخاء وتقلص العضلات في الجسم. وكل هذه الانعكاسات الفسلجية المدروسة هي مؤشرات حول تأثير العلاج بالقرآن على نشاط الجهاز السمبثاوي والبراسمبثاوي والجهاز العصبي المركزي لأجهزة الجسم المختلفة. وقد توصل البحث في نتائجه الأولية إلى وجود تغيرات فسلجية مفيدة، لها تأثير إيجابي له علاقة بعملية الشفاء، وتساعد في سرعته.

إن أهمية هذه الطريقة هي لتزويدنا بتوثيقات علمية فسلجية تثبت أن تأثير قراءة القرآن وسماعه يمكن الإفادة منه في العملية العلاجية [١].

وبعد:

فإن المجتمعات الغربية ليست كمجتمعاتنا من حيث التقدم العلمي، ورخاء العيش والغنى، لكنها لما أعرضت عن منهج الله، أصابها ما أصابها من أمراض نفسية قتالة، تركتها تتقلب على جمر الغضى، ولم تجد لحياتها طعماً ـ وهي ترفل بكل ألوان اللذائذ المادية ـ لقد التمسته في الحياة المادية فأخفقت. وكمثال على ذلك (السويد) فإن الدولة فيها قد ضمنت لكل فرد ما يكفيه من الإعانات: فلا تكاد تجد فرداً فيها يخاف على نفسه من الفقر عند الشيخوخة أو البطالة. ومع ذلك فإن الأمراض النفسية قد ازدادت فيها زيادة مذهلة، حتى صار ٢٥٪ من الشعب السويدي مصاباً بالأمراض النفسية والعصبية. ومع أن دخل الفرد السويدي من أعلى الدخول في العالم، فإن ٤٠٪ منه ينفق في معالجة تلك الأمراض. ولم يجدوا مهرباً ليتخلصوا من هذه الحياة

---

(١) 1-Documentation of Physiological effects of the Quran in man utilizing Biofeedback monitoring techniqucs. By Dr. Ahmed-Al-kadhy.

2- Health and Healing in the Quran. By Dr. Ahmed Al-kadhy.

القاسية إلا بالانتحار الذي تقترفه أعداد كثيرة من الناس هناك، هرباً مما أصابهم من عذاب نفسي عظيم.

ولا يظنن أحد أن (أمريكا) مع ما فيها من الغنى الواسع والحياة المترفة قد تخلص فيها الناس من حياة القلق والضياع، فإن مفكريها يعلنون ما يعانيه الناس من ذلك على رؤوس الأشهاد.

فيقول الأستاذ (كولن ولسون): (إن الحياة في نيويورك غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء)[1].

وتقول الأديبة الفرنسية (فرانسوا ساجان) وقد زارت أمريكا: (إن نيويورك ثقيلة الوطأة على الإنسان)[2].

ألا ما أحوجنا إلى التمسك بمنهج الله ليرأب صدعنا، ويداوي سقمنا، ويخلصنا من أمراض فتاكة تركت صرعاها يتقبلون على جمر الغضى، ويرتمضون أسى! وليس سوى هذا الدين يملك إنقاذ التائهين في دياجير الظلام، والضالين في جنباتها. وليس سوى هذا الدين بقادر على إحياء مامات في نفوسنا، وما فقدناه من عناصر الطمأنينة وراحة النفس.

إنه الإسلام وكفى يمد الإنسان بكل سبب من أسباب السعادة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥].

* * *

(١) الإيمان والحياة، ص٧٦.

(٢) الإيمان والحياة، ص٧٦.

الصعود إلى السماء

بين القرآن الكريم والعلم الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

جاءت هذه الآيةُ الكريمة لتقرِّرَ حقيقةً من الحقائق التي ضلَّ كثير من الناس في فهمها: إنها قضيةُ الهداية والضلال. وحين نتأمل فيها نجد أنها جاءت مبنيةً على وفْقِ سنةِ الله الكونية التي لا تتخلف؛ فإنَّ مَنْ يَرغبُ بالهداية ييسرها الله له و«يشرح صدرَه للإسلام»، ويُقبِلُ على هذا الدين بشوق ورغبة، ومَنْ يُريدُ الضلالَ يُقدِّرُ اللهُ له ذلك، على وفْقِ سنته الكونية ـ أيضاً ـ من إضلال من يريد الضلال لنفسه: «يجعلْ صَدْرَه ضيِّقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّدُ في السماء». ونُسِبَتْ الهدايةُ والإضلال إلى الله؛ لأنه ـ تعالى ـ هو الذي وضع تلك السننَ الكونية. وجاء اللفظ القرآني (يَهْديَه) عاماً ليشمل كلَّ لون من ألوان الهداية، وفي مقدمتها هدايةُ الله إلى التوحيد الخالص، والكرامةِ الإنسانية، والأخذ بالقيم العليا، وعدمِ السيرِ وراء الأهواءِ المضلةِ والنزواتِ الطائشة.

جاءت الآية الكريمة هذه لتوازن بين المستكبرين عن عبادة الله، الضالعين في كفرهم وشركهم وضلالهم في كل زمان ومكان، وبين مَنْ شَرَحَ الله صدورَهم للإسلام من ذوي الفِطَرِ السليمة. أُولئك الذين كانوا على استعداد للإيمان بالله والانضواءِ تحت لوائه. ويُقبِلُ هؤلاء على الإسلام، ويجدون انشراحاً في نفوسهم وسروراً في قلوبهم، وكيف لا يجدون ذلك وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويتَّبعون النبيَّ محمداً ﷺ!. وكلما نَظَرَ المؤمنُ بتأمل إلى ما يأمر به هذا الدين أو ينهى عنه، ازداد إيمانُه ويقينُه بأنه من عند الله فيذعن لذلك قلبُه.

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، فنجدُ لفظ (يهديه) ورد هنا عاماً بمعنى: يدله على الخير؛ ذلك أن الله تعالى يدل الناسَ ـ كلَّ الناس ـ على الدينِ القويم والمنهج الصحيح، الذي إنْ أَخَذُوا به سُعِدُوا في الدنيا والآخرة، وأصحابُ الفِطرَ السليمةِ هم الذين يقتنعون بتلك الدلالة؛ فيسهلُ عليهم ما يلاقونه من تَبعات التكاليف، وهكذا يشرح الله صدورهم للإسلام. وإذا انضوى الإنسانُ تحت لواء هذا الدين، يُقبِلُ على طاعةِ اللهِ وعبادتِه بحبٍ وشوق وخشوع، ولا يجدُ شيئاً من الثِقَلِ والتعبِ حين يؤدي تلك الطاعة، بل يجدُ راحتَه وسعادتَه فيها؛ وبذلك يكون من أهل القرب من الله. ويصل الأمر بمن شرح الله صدره للإسلام حدَّ أن يعتقد ويقول: إن الله تعالى لم يكلفني إلا بالقليل من التكاليف، وهو عَزَّوَجَلَّ يستحقُ الكثيرَ الكثيرَ من العبادة، وبذلك يصل إلى مرتبة الولاية التي قال الله تعالى فيها في الحديث القدسي:

«مَنْ عادى لي ولياً فقد آذَنْتُه بالحرب! وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افْترضْتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويَدَه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه»[1].

وعلى العكس من ذلك، فإن مَنْ فسدت فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فانغمر بالضلال، وتدنست نفسه بالكفر والشرك والإثم، يضيق صدرُه إذا دُعي إلى التوحيد والتأمل بدين الله الحق؛ وذلك بسبب ما كان عليه من التقليد الأعمى لما وجد عليه آباءه وأجداده من الضلال: فلا يطيق احتمالَ الاستجابةِ لما يدعو إليه دينُ التوحيد..! ويشير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ إلى ما يعانيه

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب التواضع) ٧/ ١٩٠.

الكافر من القلق والاضطراب؛ إذ اللفظ القرآني (حَرَجاً) يأتي بمعنى أضيق الضيق، ويأتي بمعنى الحجز عن العمل[1]، تقول: حرجت على فلان أن يفعل كذا أي منعته من ذلك العمل «وقد سأل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحَرَجَة؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وَحْشيَّة ولا شيء، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير»[2].

وينظر إلى الكافر فتراه ضَيِّق الصدر، قلقَ النفس، مضطربَ الشعور، وذلك بسبب كفره الذي يجعله قلقاً ومضطرباً؛ لأنَّ عقيدته كانت عن ظن وليس عن اعتقاد صحيح، ولا يستطيع أن يقوم بالتكاليف التي أمر الله بها عباده إلّا المؤمنَ الذي يُقدِمْ على أداءِ الطاعة بمحبةِ قلبٍ وانشراحِ نفس؛ مؤمِّلاً أنْ ينالَ جزاءَه عن أداءِ تلك التكاليف من الله وحده. وبذلك تسهل مشقات التكاليفِ عليه، بل تتحولُ إلى حبٍّ لها. وينقل (ابن كثير) ما قاله ابن المبارك عن ابن جريج قال: «ضَيِّقاً حَرَجاً بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن تدخله، [كأنما يصَّعَّد في السماء] من ضيق صدره»[3].

أما اللفظ القرآني (يَصَّعَّد)، فَيُشْعِرُ بحقيقةِ الصعوبةِ والجَهْدِ الشديد الذي ينال من يَرْغبُ عن طريق الهدى إلى طريق الضلال.

---

(١) ورد لفظ (الحرج) في القرآن الحكيم في مواضع عدة، وفي معان مختلفة، فقد ورد بمعنى الشك كقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].
وورد بمعنى الإثم كقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: ٩١].

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٩ بتحقيق عبد الرزاق المهدي، الطبعة الثانية ١٤٢٣-٢٠٠٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٩.

ولقد ساق القرآن الحكيم هذا المثل؛ ليشير إلى مَنْ دُعي إلى الحق ولم يستجب له لسيره في طريق الباطل، ومثله كمثل من صَعِدَ في جو السماء: فكلما أخذ بالصعود أكثر وَجَدَ ضيقاً في نفسه، حتى إذا وصل حداً من الارتفاع في أعالي الجو لم يقدر على التنفس، وعند ذلك يموت اختناقاً!.

وهكذا يمضي قدَرُ الله على وَفْقِ سنته الكونية في انشراح صدر مَنْ يريد الهدى، وفي جَهْدِ ومشقةِ الذين يُعرضون عن الإيمان الصحيح، ويؤثرون طريق الغواية على طريق الهداية؛ فيتخبطون على غير هدى.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والرجس: ما استُقْذِرَ من العمل. وفي هذا مبالغةٌ في الذم.

وخلاصة القول: إن الله تعالى يهدي العبدَ بالإيمان الصحيح الذي يقذفه في قلبه، ويشرح صدره للإسلام بالنور الذي يجعله ـ سبحانه ـ في قلب عبده المؤمن. ويظل القلبُ حياً ما دام الإيمانُ يعمره، والنورُ قائماً فيه ساكناً في سويدائه. فإذا خلا القلبُ من الإيمان والنور أُصيب صاحبُه بالموت والعمى، وإذا كان سبب موتِ القلب خلوَّه من الإيمان، فإن إصابته بالعمى كان بسبب انطفاءِ النورِ فيه.

ويُشبِّهُ الصحابي الجليل حذيفةُ بنُ اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قلوبَ الناس فيقول: «القلوبُ أربعة: قلب مصفح فذلك قلب المنافق، وقلب أغلف فذاك قلب الكافر، وقلب أجرد فكأنَّ فيه سراجاً يُزْهِرُ فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فَمَثَلُه كمثل قرح يمدها قيح ودم، ومَثَلُه كمثل شجرةٍ يَسْقيها ماءٌ خبيث وطيب، فأيُّما غَلَبَ عليها غَلَبَ»[1].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ضمن كتاب من كنوز السنة بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني وقال: حديث موقوف صحيح. وانظر: الكتاب المصنف لابن أبي شيبة، حديث (٣٠٣٩٥)، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت.

المعجزة القرآنية:

معجزات القرآن الحكيم كثيرة ومتعددة، شملت الكثير من جوانب حياة الإنسان، وهي مستمرة ومتجددة: ففي كل جيل يكتشف الإنسان قسماً منها، فإذا جاء الجيل الذي بعده اكتشف جوانب أخرى! وهكذا الأمر منذ مبعث النبي ﷺ وإلى يوم الناس هذا، وسيظل هذا الإعجاز قائماً إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها؛ ذلك أن هذا القرآن منزلٌ من عند الله، ويستحيل أن يقدر البشر على الإتيان بمثله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ونتأمل بالآية فنجد: أن الإنسان يضيق صدرُه حينما يحلق في الارتفاعات العالية، وهذا ما عبَّرَ عنه القرآنُ الكريمُ بقوله: «يجعلْ صدرَه ضيقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّدُ في السماء» أي: في طبقات الجو العليا، وظهرتْ هذه الحقيقةُ واضحةً للطيارين الذين يرتفعون في أعالي الجو؛ إذ يصابون بالتعب والصداع، وصعوبة التنفسِ وضيق الصدر. وهذا ما أشارت إليه الآيةُ إشارةً واضحة. ولم يتوصل الأطباءُ المتخصصون في طب الطيران والفضاء إلى هذه الحقيقة إلا بعد دراساتٍ دامت عشراتِ السنين: فقد ابتدأ العلماء بأبحاثهم منذ سنة ١٧٨٦م في تأثير طبقاتِ الجو العليا على الإنسان، وخطوا خُطواتٍ سريعةً في (فسيولوجيا) الجسم، ومدى تأثيره في طبقات الجو العليا، وذلك سنة ١٨٧٨م. وفسَّرَ لنا طبُّ الطيرانِ والفضاءِ معنى هذه الآيةِ من الناحيةِ العلمية، وذلك بعرْض تكوينِ الغلافِ الجويِّ وطبقاتِه وتأثيرِه فسيولوجيا على الإنسان، فوجدوا أن الإنسان يستطيع أنْ يعيشَ عيشاً اعتيادياً طبيعياً إذا ارتفع عن سطح البحر ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف قدم)؛ ذلك أن كمية (الأوكسجين) الموجودة في الهواء تكفي لعيشه عيشاً طبيعياً.

ذلك أن في كل إنسان حويصلات هوائية، وحين يدخل الأوكسجين في الهواء تنتفخ. وكلما صعد الإنسان في أعالي الجو يقل الهواء؛ فيقل معه الأوكسجين، فيقل ضغطه. وبهذا تنكمش الحويصلات حين يقل الأوكسجين، فإذا انكمشت الحويصلات يضيق التنفس لدى الإنسان. وزيادة في إيضاح هذه القضية يقول أطباء طب الطيران والفضاء: إن الإنسان إذا إذا ارتفع من ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) قدم إلى ٥٠,٠٠٠ (خمسين ألف) قدم؛ فإن كمية الأوكسجين في الهواء يصيبها النقص، ويحدث ـ أيضاً ـ انخفاض في الضغط الجوي؛ لذلك لا يقدر الإنسان أن يتنفس التنفس الاعتيادي وينتج عن ذلك عدم قدرته على العيش عيشاً اعتيادياً في هذا الجو!. وأما إذا ارتفع الإنسان في أعالي الجو إلى حوالي ٦٣٣,٠٠٠ قدم، فإنه يستحيل عليه العيش في هذا الجو حتى لو تنفس ١٠٠٪ من الأوكسجين، ولا يقدر على ذلك إلا إذا ارتدى ملابس الفضاء المجهزة: إذ عند ذاك يستطيع أن يتحمل الانخفاض في الضغط الجوي ونقصان الأوكسجين[1].

وهذه الحقيقة العلمية لم تعرف إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه!

إنها معجزة من معجزات القرآن، تنص نصاً صريحاً على أن هذا القرآن منزل من عند الله. وإلَّا، مَن الذي أخبرَ محمداً ﷺ بهذه الحقيقة العلمية التي ستكشف بعد قرون وقرون لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟!!!

* * *

(١) لزيادة الإطلاع انظر: البحث الذي كتبه وألقاه الأستاذ الدكتور صلاح الدين المغربي في المؤتمر العلمي الأول عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الذي عقد في (إسلام آباد). والدكتور المغربي عضو في الجمعية الأمريكية لطب الفضاء، وأستاذ طب الفضاء بمعهد طب الفضاء في لندن.

المنافقون
في القرآن الكريم

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يبلِّغني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، وعلى من اتبع هداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلما أشرقت شمس الإسلام على الوجود، تصدى لهذا الدين أعداء كثيرون، اتسموا باللدد في الخصومة والفجور في محاربة هذا الدين، من أجل طمس معالمه، وطيّ راياته، وإخفات ضوئه...! بيد أن الأعداء ـ كلهم ـ لم ينالوا من هذا الدين ما ناله (المنافقون) الذين أساءوا إساءات بالغةً لدعوة الله ولشخصية الرسول الكريم ﷺ. وتكمن خطورة هؤلاء بانضوائهم تحت لواء الإسلام في الظاهر، وبقائهم في شركهم وكفرهم وضلالهم في الباطن: فقد كانوا يجلسون مع الرسول الكريم ﷺ، ويعلنون إيمانهم على رؤوس الأشهاد، لكنهم حين يلتقون أئمتهم في الكفر وأمثالهم في الضلال يظهرون ما أخفوه، ويعلنون عما بداخلهم من عقائد كافرة وفكر ضال، مصرحين أنهم كانوا بإيمانهم الظاهر مستهزئين. وقد فضحهم العليم الخبير على رؤوس الأشهاد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٤-١٦].

وهذا البحث المتواضع يتضمن تفسيراً موضوعياً لآيات كريمات تحدثت في المنافقين وصفاتهم. سائلاً الله تعالى أن يوفقنا لفهم كتابه والعمل بأحكامه. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

من صُوَر المنافقين

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨].

تتحدث هذه الآيات في صنف من أصناف المنافقين، فتحكي صورة خبيثة من صورهم لتقبيحها في أعين الناس، ذلك أن منهم من عاهد الله في حال فقره وعسرته وشدته: لئن أعطاه الله مالاً وبسط له في الرزق ليمدن يد العون إلى الفقراء، ولينفقن منه في سبيل الله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

واستجاب الله له فرزقه مالاً كثيراً، لكن صاحب العهد هذا لم يف بعهده بل تنكر له إذ أدركه الشح، فكان ذلك سبباً في التمكين للنفاق في قلبه، وسيظل ذلك (النفاق) يصحبه إلى يوم القيامة! وكثيرون أولئك الذين يدعون ربهم مخلصين له الدين في حال الضر والشدة والبلاء، ويبغون في الأرض بغير الحق إذا كشف الله عنهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟

(١) أصل (لنصدقن): (لنتصدقن)، فحدث الإدغام للتخفيف. ووقعت اللام في جواب القسم في قوله: ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ ليشير إلى تأكيد العهد الذي عاهد به هذا رب العالمين: على أنه إن أتاه الله من فضله فسينفق منه في سبيل الله.

أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ ﴾ [يونس: ٢١-٢٣].

إنَّ إقبالَ الدنيا على الناس إنما هو امتحان لا يصبر على القيام بحقه إلا مَنْ قَذَفَ اللهُ في قلبه نوراً، وجَعَلَ فيه بصيرةً مبصرة، إذ الطبيعة البشرية قد جبلت على الشح إلا من عصمه الله فعمر قلبه بالإيمان. وصاحب هذا القلب المؤمن يرجو ثواب الله، ويؤمل ما هو أعظم مما ينفق عنده. وهو لا يخشى الفقر بسبب ما ينفق في سبيل الله، لأنه يعتقد اعتقاداً جازماً أن ما عند الله خير وأبقى! هذا الاطمئنان النفسي يحضُّ الإنسان حضاً على البذل في سبيل الله، راضيةً به نفسه، مطمئنةً بذلك روحه، وهو يعتقد أنه مهما أنفق من نفقة فلن يسلمه الله إلى الفقر! بل حتى لو افتقر، فإن ما عند الله خير وأبقى!! أما القلب الذي أقفر من الإيمان الصحيح، فيصير الشح مركوزاً فيه يخوفه الشيطان الفقر إذا أنفق وتصدق فيحجم عن ذلك، ويظل أسير شحه وخوف فقره!

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾: جمع هذا النص الكريم ثلاثة أوصافٍ للمنافقين:

١ ـ البخل. ٢ ـ التولي عن العهد.

٣ ـ الإعراض عن تكاليف الله.

وقوله: ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يشير إلى أن هؤلاء صار الإعراض عادةً لهم، بل صار هذا الوصف لازماً لهم بل غريزة فيهم. فلم يكن لطارئ حدث لهم ثم يزول بزواله، بل أعرضوا عن دفع الصدقة وهم يتمتعون بقواهم كلها، فصار الإعراض صفةً راسخةً فيهم!

هكذا طبع النفاق في قلب من عاهد الله فلم يف بعهده: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1].

لقد أشار النص الكريم إلى سببين من أخص صفات المنافقين: إخلاف الوعد، والكذب.

وإخلاف الوعد صفة ذميمة توعد من اتصف بها رسول الله ﷺ.

فإذا كان النفاق في القلب فهو الكفر، وإن كان في الأعمال فهو معصية يقول الرسول ﷺ: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[2].

وإذا كان إخلاف الوعد مع الناس صفة ذميمة من صفات المنافقين، فكيف إذا كان إخلاف الوعد مع الله؟!

أما الكذب، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل. والمنافق كثير الكذب، لأن باطنه يختلف عن ظاهره، وهو لا بد له أن يكتم ما يبطنه ويظهر خلافه، فيعمد إلى الكذب، لئلا يفتضح أمره.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

---

(١) جاء التعبير القرآني بالفعل الماضي ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ﴾، لأن الإخلاف قد وقع، وأما قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ فقد عبر بالمضارع في لفظ ﴿يَكْذِبُونَ ﴾ ليفيد عملية استمرار الكذب فيهم، إذ من أخص صفات المنافقين كذبهم.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان في (باب: علامات المنافق)، وفي كتاب المظالم في (باب: إذا خاصم فجر)، وفي كتاب الجزية في (باب: اسم من عاهد ثم غدر)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان في (باب: بيان خصال المنافق).

السر: ما ينطوي عليه الصدر وما يخفيه من كلام وما يضمره الإنسان من أمرٍ لا يُطلِعُ عليه أحداً. والنجوى: ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم سراً من تسميتهم الزكاة جزية مثلاً.

وأما لفظ ﴿عَلَّـٰمُ﴾ فصيغة مبالغة في العالم. و﴿ٱلْغُيُوبِ﴾: جمع غيب: وهو ما خفي عن العيان. وجاء لفظ الجلالة هنا لإلقاء الروعة في القلوب وتربية المهابة في الصدور. فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم السر وأخفى، وهو أعلم بضمائر الناس من أنفسهم، لأنه علام الغيوب يعلم ما ظهر وما بطن. ويحمل النص توبيخاً لأولئك المنافقين. ومن مقتضاه أن يجازيهم على ما أقدموا عليه.

سبب النزول:

ذكر المفسرون روايات في سبب نزول هذه الآيات تقرر أنها نزلت في رجل من الصحابة يسمى (ثعلبة بن حاطب). غير أن هذه الروايات ـ كلها ـ لم تسلم واحدة منها من ضعف شديد وطعن في سندها ومتنها أدى إلى ردها وعدم قبولها، وهذه رواية القصة:

عن أبي أُمامة الباهلي قال: (جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي ذكره خير من كثير لا تطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «أما لك فيَّ أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت». ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حقٍ حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً، اللهم ارزق ثعلبة مالاً»، قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فكان

يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي في غنمه سائر الصلوات، ثم كثرت ونمت، فتقاعد أيضاً حتى صار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتقاعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة، وكان إذا كان يوم جمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار. فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله، اتخذ ثعلبة غنماً لا يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» وأنزل الله آية الصدقة، فبعث رسول الله رجلاً من بني سليم ورجلاً من بني جهينة، وكتب لهما أسنان الصدقة كيف يأخذان وقال لهما: «مُرّا بثعلبةَ بن حاطب وبرجل من بني سُلَيم فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبةَ فسألاه الصدقة، وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلّا جزية، ما هذه إلّا أُخت الجزية، إنطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليَّ، فانطلقا، وسَمِعَ بهما السلمي فنظر إلى خيارِ أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياها قالا: ما هذا عليك، قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمرّا على الناس وأخذا الصدقة، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرآه فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي، فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه قال: «يا ويح ثعلبة» ثم دعا للسلمي بخير، وأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: «ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ فيك كذا وكذا! فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال: «إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثي التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا

عملك قد أمرتك فلم تطعني»! فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله. وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبض منه شيئاً.

ثم أتى أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر، لم يقبلها رسول الله منك، أنا أقبلها؟ فقبض أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يقبلها.

فلما ولي عمر أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر، أنا أقبلها؟! فقبض ولم يقبلها.

ثم وَلِيَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، أنا أقبلها؟ وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

اخرج هذا الحديث الطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في الدلائل، وعزاه الشوكاني في (فتح القدير) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال وأبي نعيم وابن مردويه كلهم من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي[1].

ولقد كفاني مشقة البحث في إسناد هذه الروايات الأستاذ أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي إذ قام بطبع كراس نقد فيه هذه الروايات في ضوء قواعد علم الحديث، وبين عللها رواية ودراية، وعقب على ذلك بما ذكره علماء الحديث الأعلام في بطلان هذه الروايات. وهذه مقتطفات مما قاله بتصرف قليل:

---

(١) انظر: تخريج سند هذه الروايات في كتاب (الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) تأليف أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي ص١٠-١٤، الناشر: مكتبة التوعية الإسلامية، السنة المحمدية للطباعة، القاهرة.

بطلان القصة متناً:

قال: «إن مما يؤكد فساد القصة وبطلانها ما فيها من اختلاف ونكارة وإليك التفصيل:

١ ـ عدم مطابقة الآيات للقصة: فالآيات ذات دلالة واضحة على أن الذي عاهد الله كان منافقاً معلوم النفاق. يتضح ذلك لمن تدبر سياق الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٣-٧٧].

قال ابن جرير (١٠/ ١٢) في تفسير الآيات: يقول تعالى ذكره: «ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ...﴾».

والقصة تؤكد أن ثعلبة كان محافظاً على الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، حتى أن القصاص والعامة نعتوه بحمامة المسجد. وهذا ـ لا شك ـ من صفات المؤمنين وليس من صفات المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

والقصة لذلك تؤكد أن ثعلبة كان مؤمناً، وإنما فتنه المال. قال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن) ٨/ ٢١٠ بعد أن نقل قول الضحاك: «إن الآية

نزلت في رجال من المنافقين (نبتل بن الحارث) و(جد بن قيس) و(معتب بن قشير)، قلت (أي: القرطبي): وهذا أشبه بنزول الآية فيهم إلا أن قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾».

قلت: والصواب ما ذكره أخيراً، فإن الله أعقبهم نفاقاً لا توبة منه وهي زيادة على أصل النفاق. ودليل ذلك أن الذي عاهد الله مات منافقاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾. وهذا يدل على أن الذي عاهد الله كان منافقاً. وهذا الذي رجحه القرطبي ٨/ ٢١٢: «وفي هذا دليل على أنه مات منافقاً وهو يبعد أن يكون المنزل فيه ثعلبة...».

٢ ـ الآيات تدل دلالة واضحة على أن الله طبع على قلب هذا المنافق فاحتجب التوبة عنه فأدركته سوء الخاتمة. وهذا يعني أنه لن يخطر بباله أن يتوب.

والقصة تفيد أن ثعلبة عندما علم ما أنزل الله رجع وتاب وتذكر وهذا ـ لا شك ـ دليل على أنه من المؤمنين، وأن الذي مسه إنما هو طائف من الشيطان فلما ذكر انتفع بالذكرى والذكرى تنفع المؤمنين.

٣ ـ مخالفة القصة للقرآن الكريم:

أ ـ فإن من أصول الشريعة التي قررها الله في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ أن التائب لو بلغت ذنوبه عنان السماء ثم تاب، تاب الله عليه... ودليل ذلك قول الرسول ﷺ: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1].

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر. وهو حديث حسن.

والقصة تؤكد أن ثعلبة تاب توبة نصوحاً، فجاء يعرض صدقته على الرسول ﷺ وأكد توبته مراراً، فجاء أبا بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكنهم رفضوا قبول توبته، وأخبروه أن الله لم يقبل توبته. وهذا خلاف ما تقدم من النصوص القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها التي تقرر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ب ـ فإن قيل: إن ثعلبة منافق. قلت: حتى المنافقين قد فتح الله لهم باب التوبة على مصراعيه، قال الشاكر العليم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٧].

٤ ـ مخالفتها للأحاديث الثابتة الواردة في مانع زكاة الإبل والماشية: فقد جاءت الأحاديث الصحيحة صريحة في أن صاحب الإبل والماشية إذا منع زكاتها أخذت الزكاة منه قهراً وأخذ شطر ماله عقوبة على منع الزكاة... بينما القصة تؤكد أن ثعلبة منع زكاة إبله وماشيته ووصفها بأنها جزية، ولم يحرك الرسول ﷺ ساكناً. أي: أن الرسول ﷺ ترك تنفيذ الأحكام المفروضة، وتهاون في إمضاء حكم الله على مانع الزكاة. وكذلك الخلفاء الثلاثة تهاونوا وتقاعسوا عن ذلك، بل إن حق الله في مال ثعلبة جاءهم فرفضوه. وهذا دليل على فساد القصة من أصلها. كيف وقد جرد الصحابة السيوف، وجيشوا الجيوش على مانعي الزكاة الذين رفضوا إعطاءها بعد موت الرسول ﷺ؟

٥ ـ ثعلبة بن حاطب من العصبة المؤمنة التي شهدت بدراً... ولقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا يدخل النار أحد إن شاء الله ممن شهد بدراً والحديبية»[١]. وأقول للذين يدندنون حول قصة ثعلبة دون إدراك معانيها الخاطئة: أليس ثعلبة من أهل بدر. فمن يكون بهذه المنزلة كيف يعقبه الله نفاقاً إلى يوم يلقونه؟ أي: يختم له بالنفاق ثم يوجب له الجنة.

ما قاله العلماء:

وهذه أقوال قسم من علمائنا الأعلام في إبطال هذه القصة المزعومة التي سارت بذكرها الركبان:

قال ابن حزم الظاهري: «على أنه قد روينا أثراً لا يصح. وفيه أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب! وهذا باطل، لأن ثعلبة بدري معروف». ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة وقال: «وهذا باطل بلا شك، لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عَلَيْهِ السَّلَامُ عند موته أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان. فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلماً ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد، ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافراً، ففرض أن لا يقر في جزيرة العرب، فسقط هذا الأثر بلا شك...»[٢].

وقال عبد الرؤوف المناوي: «قال البيهقي: في إسناد هذا الحديث نظر وهو مشهور بين أهل التفسير»[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داؤد والترمذي.

(٢) المحلى، لابن حزم ١١/ ٢٠٧-٢٠٨، منشورات المكتب التجاري، بيروت.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للعلامة المناوي ٤/ ٥٢٧، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، الطبعة الثانية.

وقال ابن حجر: «وفي كون صاحب هذه القصة ـ إن صح الخبر ولا أظنه يصح ـ هو البدري المذكور قبله نظر»[1].

وقال أيضاً: «... لكنه حديث ضعيف لا يحتج به»[2].

وهناك أقوال كثيرة أخرى في الطعن بهذه الروايات لم أذكرها خشية الإطالة، وقد ذكرها الأستاذ سليم بن عيد الهلالي في كتابه (الشهاب الثاقب) المشار إليه.

وبعد:

فإن في كل رواية من روايات القصة علة قادحة أو أكثر، فإن رواتها ما بين متروك وضعيف جدًا، أو متهم بالكذب، فلا تقوى القصة إذا جاءت من طرق أخرى. قال ابن الصلاح: «لعل الباحث الفهم يقول: أنا نجد أحاديث محكوماً بضعفها مع كونها قد رويت بأسانيد كثيرة من وجوه عديدة... فهلا جعلتم ذلك وأمثاله من نوع الحسن، لأن بعض ذلك عضد بعضاً كما قلتم في نوع الحسن على ما سق آنفاً؟»[3].

وجواب ذلك أنه ليس كل ضعف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه، بل ذلك يتفاوت، فمنه ضعف يزيله ذلك... ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لشدة الضعف وتقاعد هذا الجابر عن جبره ومقاومته، وذلك كالضعف الذي ينشأ من كون الراوي متهماً بالكذب، أو كون الحديث شاذاً...»[3].

ومن الله التوفيق.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ١/ ٤٠١، بتحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٢٦، دار الفكر، بيروت.

(٣) علوم الحديث لابن الصلاح، ص٣٠-٣١، بتحقيق الدكتور نور الدين عتر، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ.

من صفات المنافقين في القرآن الكريم

مقدمة:

أرسل الله محمدَ بنَ عبد الله صلوات الله وسلامه عليه بهذا الدين، لينقذ البشرية من ذلك التيه والضياع والانحراف الذي كان عليه الناس في العقيدة والسلوك والأخلاق. غير أنَّ ثلاثةَ أصنافٍ من الناس وقفت في وجه دعوة الإسلام؛ خوفاً على زعامتها، أو حَسَداً من عند أنفسها هي:

١ ـ المشركون في مكة.

٢ ـ اليهود في المدينة.

٣ ـ المنافقون.

أما المشركون في مكة، فكان موقفُهم صريحاً من دعوة الإسلام؛ إذ أعلنوا عداوتهم عليها، وأقاموها حرباً ضروساً لا هوادة فيها، وأما اليهود بالمدينة المنورة، فقد حَسَدُوا الرسولَ الكريم ﷺ على ما آتاه الله من النبوَّة، وسلكوا سُبُلاً كثيرة في محاربته! وهكذا أصبحَ موقفُ الرسول ﷺ من هؤلاء وهؤلاء واضحاً: يحاربُهم تارةً ويعاهدهم تارةً أخرى، وهو في ذلك يرجو إيمانهم ليخلصَهم مما كانوا فيه من ضلال وعداء وعناد.

وأما المنافقون، فقد كانوا أفراداً من أهل المدينة، أعلنوا انضواءهم تحت لواء الإسلام في الظاهر، وأضمروا عداوتهم له في حقيقة الأمر.

النفاق في اللغة:

النفاق في اللغة: سَرَبٌ في الأرض يكونُ له مخرج من موضع آخر: فهو من نافقاء اليربوع الذي يجعل له بابين، فإذا طُلِبَ من أيِّهما كان خَرَجَ من الآخر: فقيل للمنافق منافقاً؛ لأنه وضَعَ لنفسه طريقين: إظهار الإسلام

وإضمار الكفر، فمن أيهما طُلِبَ خرجَ من الآخر. ولفظ (النفاق) مصطلح إسلامي لم تعرفْهُ العربُ في الجاهلية بهذا المعنى المخصوص: وهو الذي يَسْتُرُ كفرَه ويُظهرُ إيمانَه.

خطر المنافقين:

إذا كان الكذب أنواعاً كثيرةً، فإنَّ أحطَّ أنواعه النفاق؛ إذ يحمل في طيّاته الخستَ والجبنَ والحقدَ والحسدَ والضغينةَ والمكرَ السيئ وإيذاء المسلمين. وقد أتقن المنافقون فنَّ الدعاية، فقاموا بتشويه الحوادث على ضعفاء المسلمين وإيقاعهم في الاضطراب. ومن تلك الدعاية: إذاعة تَرَبُّصِ الأعداء بالمسلمين، ونشر الأراجيف، والشماتة إذا أصيب المسلمون بمصيبة!

وتختلف صورةُ المنافق عن الكافر الصريح الكفر؛ ذلك أن الكافر لا يشكِّلُ خطراً على المسلمين؛ إذ لا يواليه مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من إيمان صحيح. لكنَّ الخطر ـ كل الخطر ـ في هؤلاء الذين يتزيَّون بزيِّ الإسلام، ويتحدثون باسمه، ويُظْهِرون الإيمان ويحملون في داخلهم الكفرَ والحقدَ على المسلمين.

كيف ظهرت حركةُ النفاق:

ظل الرسول الكريم ﷺ ثلاثةَ عَشَرَ عاماً في مكة يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة من غير أن تتكوَّن للنفاق جبهة، ذلك أن قوَّتي الإيمان والكفر المادية لم تكونا متكافئتين: فقد انخرط تحت لواء الإيمان عدد من المسلمين المستضعفين الذين لا حول لهم ولا طول، فيهم العبيد والفقراء وعدد ليس بالكثير من ذوي العصبيات الذين تَخَلَّت عنهم عصبياتهم، بل تنكرت لهم. أما دولة الشرك، فكانت قائمة على قدم وساق، تمثلها العصبياتُ

الكبرى؛ لذلك لم تتكون للنفاق جبهة ضد الإسلام. أما بعد أن أعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه بالمدينة، فقد ظهرت هذه الحركة!

لقد كانت المدينة المنورة مكوّنةً من خمس قبائل: اثنتان من العرب هما: الأوس والخزرج، وثلاث من اليهود هي: (بنو قريظة) و(بنو النضير) و(بنو قينقاع). ولم يُسْلمْ منهم إلا قليل مثل (عبد الله بن سلام)، وكانوا يتمتعون بقوَّة عسكرية واقتصادية. ودخل الأوسُ والخزرجُ في دين الله بعد أن كانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام.

لم تظهر حركة النفاق في الفترة الأولى من الهجرة النبوية؛ ذلك أنَّ المسلمين لم تكن لهم قوة وشوكة يَخْشى منها اليهود أو المشركون هناك، ولكن بعد (غزوة بدر الكبرى) وانتصار المسلمين فيها، شَعَرَ هؤلاء وأولئك بأنَّ المسلمين صارت لهم قوة تخيف أعداءهم.

ومما أعان على ظهور حركة النفاق: أنَّ أهل المدينة كانوا قد عزموا على أن يُتَوِّجُوا ملكاً عليهم (عبد الله بن أبيٍّ بن سلول). فلما هاجَرَ الرسولُ الكريم إليهم طارت أحلامُ (ابن سلول) فأرادَ الكيدَ لدعوة الإسلام وعرقلة سيرها؛ فدخل في الإسلام هو ومَنْ على شاكلته؛ قاصدين إيجاد عقباتٍ أمامَ دعوةِ الإسلام...! فصار يدسُّ الدسائس على الرسول الكريم، ويعمل على تأليب الناس ضد دعوة الإسلام حتى وقعت (غزوة بني المصطلق) وفضح الله المنافقين. عند ذاك انهارت آماله، وسقط القناع عن وجهه، ودخل المدينة ذليلاً. لكن جبهة النفاق ظلت تعمل وتعمل حتى بعد موت رأس النفاق، بل ظلت تعمل حتى قبيل وفاة الرسول ﷺ، فكانت خطراً حقيقياً على دعوة الإسلام.

المنافقون في القرآن الكريم:

ذُكِرَ المنافقون في القرآن الكريم كثيراً، فوصَفَ الله أحداثَهم في ثلاث عشرة سورةً من السور المدنية[1] هي سور: (البقرة) و(آل عمران) و(النساء) و(المائدة) و(الأنفال) و(التوبة) و(النور) و(الأحزاب) و(القتال) و(الحديد) و(المجادلة) و(الحشر) و(المنافقون).

أما الآيات التي تحدَّثت في النفاق والمنافقين وذكرت دسائسهم ومؤامراتهم وأخلاقَهم، فكانت أكثر من ثلاثمائة آية. وكانت تلك الآيات توجِّه إليهم النصح بعد النصح، وتظهر ما كانوا يُدَبِّرون. ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

---

(١) عدد السور المدنية المتفق عليها عشرون سورة، والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك فمكيٌّ باتفاق.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

لماذا أظهر المنافقون الإسلام وأخفوا الكفر؟

لقد أظهر المنافقون الإسلام وأخفوا الكفر لأسباب كثيرة منها:

١ ـ ليكونوا محل احترام من النبيّ ﷺ ومَنْ آمَنَ به.

٢ ـ ليتمكنوا من أداء مهمة التجسس على المسلمين، وليَدُلُّوا الكفارَ على ما ينتفعون به ليكيدوا المسلمين.

٣ ـ الطمع في أموال الغنائم.

السلف وقضيّة النفاق:

لقد خشي السلف الصالح أشدَّ الخشية من أية صفةٍ كانت من صفات المنافقين فابتعدوا عنها في العمل والسلوك، فقال إبراهيم التيمي: «ما عَرَضتُ قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون مكذباً».

وقال ابن أبي مليكة: «أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاقَ على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل».

ويُذكر عن الحسن: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمِنَهُ إلا منافق».

والضميرُ في قوله: (خافه) و(أمِنَه) يعودُ إلى النفاق.

وكان النبي ﷺ قد أخبر حذيفةَ بن اليمان بأسماء عدد من المنافقين، فجاء سيدنا عمرُ إلى حذيفةَ وسأله: هل أنا من المنافقين؟ قال ذلك ليطمئنَّ على نفسه، فيجيبه حذيفة بقوله: يا عمر، لستَ منهم.

ولا ريب أن النفاق الذي كان يخشاه السلف ليس نفاق الكفر، بل هو نفاق العمل وهو يتعارض مع كمال الإيمان وصفائه لا مع أصله.

التفسير:

بعد هذه المقدمات نتكلم في ظلال الآيتين الكريمتين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

في هاتين الآيتين يُبْرِزُ اللهُ تعالى صفات مهمةً من صفات المنافقين التي استحقوا بها أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار: أما الصفة الأولى، فهي أنهم مخادعون: «يخادعون الله وهو خادعهم».

والخَدْعُ ـ بفتح الخاء وكسرها ـ بمعنى الإخفاء والإيهام. وخَبٌّ خادع: إذا أوهَمَ حارسه الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر.

والمخادعة: مفاعلة، وهي أن يفعل كلُّ أحدٍ بالآخر مثلَ ما يفعلُه به. والله ـ سبحانه ـ أجَلُّ من أن تخفى عليه خافية؛ فلا يستطيعُ المنافقون أن يخدعوه. وسُمِّيَتْ مخادعة من باب (المشاكلة) كما يقول علماء البلاغة. ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]. أو هي استعارة تمثيلية في الجملة كلها. فيكون أمامنا صورة صنيعهم مع الله؛ إذ يتظاهرون بالإيمان، لكنهم في حقيقتهم كافرون. ويصنع اللهُ بهم هكذا؛ إذ أمرَ أنْ تُجرى عليهم أحكام المسلمين.

إن الأعمال التي يقوم بها المنافق هي أعمال المخادع: إذ يُظهرُ الإيمان ويُبْطن الكفر، والله عَزَّوَجَلَّ قد ترك دماءهم وأموالهم معصومة، ولكن أعدَّ لهم الدرك الأسفل من النار.

وإذا كان المنافقون يريدون أن يخدعوا الله، فإن الله خادعهم، حين يُفْسدُ عليهم ما يُدَبِّرُون، ويَرُدُّ إليهم كيدَهم ويَكِلُهم إلى أنفسهم. وكأن هؤلاء

لم يعلموا أن الله ـ تعالى ـ عالم بسرائر الناس، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. إنهم لجهلهم بالله يظنون أن أمرهم يروج عند الله بما يقولونه كما راج عند الناس في الدنيا. وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنّ هؤلاء يحلفون بالله أنهم كانوا على الاستقامة، ظانين أن ذلك ينفعهم عند الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل يمد الله لهم في ضلالهم، ويستدرجهم في طغيانهم؛ فلا ينبههم بمصيبةٍ توقظُ قلوبَهم، و بقارعةٍ تفتح عيونهم، فلا يصيبُهم بمحنٍ تردُّهم إلى سواءِ السبيل؛ إذ المحن قد تكون رحمةً من الله بعباده، والصحة والعافية والمال الوفير قد يكون استدراجاً من الله لهم ليمعنوا في الإثم والغواية فيصلوا إلى شر مصير: إلى عذاب الخزي والوبال في جهنم. لقد ظن هؤلاء أنهم حين يتنكرون هذا التنكر المشين في أحوالهم المختلفة قد خدعوا الله، وما درى هؤلاء أنهم بهذا قد خدعوا أنفسهم!

هذه هي الصفة الأولى من صفات المنافقين. وأما الصفة الثانية، فهي أنهم متراخون عن أداء الصلاة: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

هذه هي صفتهم في عمود الإسلام ومفتاح الجنة، وأشرفِ الأعمال، والعهد الذي بيننا وبين الكفار، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة. فهم متثاقلون ومتباطئون عن الصلاة، لا نشاط لهم فيها، وحالهم في أدائها حال المكْرَه على الفعل: كالذي يقوم بأداء عمل ثقيل من دون رغبة! فهم لا يدفعهم شوق إلى لقاء الله في الصلاة، ولا يجدون لذةً حين يقفون بين يديه، ولا يستمدون منه الهداية والعون، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]. إنهم لا ينشدُّون لأدائها لأنهم لا إيمان لهم بالله: فإذا قاموا إلى

الصلاة قاموا قيام العاجز، إذ لا تكون لهم خشية فيها ولا يدرون ما يقولون. إنهم يقومون بأداء حركات فقط، لذلك نجدُ الرسول ﷺ يقول: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُبُ الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرَ أربعاً لا يذكر اللهُ فيها إلا قليلاً»[1].

وهؤلاء المنافقون يتعمدون تأخير الصلاة، وبخاصة (الصبح والعشاء)؛ لذلك نجد الرسول الكريم ﷺ يُنَدِّد بمنْ يتأخر عنهما أو عن إحداهما فيقول: «إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر. ولو يعلمون ما فيهما لأَتوهما ولو حبواً. ولقد هممتُ أن آمُرَ بالصلاة فتقام، ثم آمُرَ رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيوتهم بالنار»[2].

هؤلاء الذين إنْ قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُصَلُّون بأجسامهم كما يصلي المؤمنون، لكن قلوبهم لم تتحرك نحو مَنْ يجب أن يُصلُّوا له؛ لأنهم لم يشعروا بعظمة الله ولا بسلطانه. فهم يقرؤون القرآن ولا يتدبرونه، ويقفون في الصلاة وقد شُغِلُوا بأعمالهم وتجاراتهم، فلا تتزاحم الأفكارُ الدنيويةُ عليهم كما تتزاحم عليهم في وقت الصلاة، وقلما يخطر ببالهم أنهم واقفون بين يدي جبار السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، المطلع على كل ما في ضمائرهم وخواطر نفوسهم! هذه الصلاة لا تؤثر في عقيدتهم فتقويها، ولا في سلوكهم وأخلاقهم فتغيرها. هؤلاء هم الساهون عن الصلاة ولو صلوا الأوقات الخمسة

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) رواه البخاري ومسلم. وذكرت صلاة العشاء والفجر هنا؛ لأن صلاة العشاء يحين وقتها وقد أتعب الناس العمل في النهار، فيثقل عليهم القيام إليها. وأما صلاة الفجر فيكون النوم عند الناس أحب إليهم من كل شيء.

جماعةً في المسجد، وهم الذين أعد اللهُ لهم العذاب الأليم في نار جهنم... إنهم الذين توعدهم بقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ثم تأتي صفتهم الثالثة: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

المراءاة: مفاعلة من الرؤية، إذ المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسان ذلك العمل. وجملة ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معطوفة على جملة ﴿يُرَآءُونَ﴾.

والمراءاة: أن لا يريد الإنسان بعمله وجه الله، بل يريد إطلاع الناس على ذلك لينال ثناءهم. ومن يفعل ذلك يكن عمله مردوداً عليه يوم القيامة. لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم. وقد ذمَّ الله المرائين فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾.

وبيَّنَ أنَّ العملَ لا يكون مقبولاً إلا إذا كان خالصاً له وحده، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك: من عَمِلَ عملاً أشرَكَ فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

وقال ﷺ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»[2].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد، (باب: مَنْ أشرك في عمله غير الله).

(٢) رواه الترمذي في كتاب العلم، (باب: فيمن يطلب بعلمه الدنيا).

وقال: «إذا جَمَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[1].

وقال: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به، ومَنْ راءى راءى اللهُ به»[2].

وقال: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نِعَمَهُ فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء! فقد قيل، ثم أمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلَّمَ العلمَ وعلمه، وقرأ القرآن؛ فأتيَ به فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال، فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال: عالم! وقرأت القرآن ليقال: قارئ! فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسَّعَ اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحب أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: جواد! فقد قيل، ثم أمرَ به فسُحِبَ على وجهه ثم ألقي في النار»[3].

وقال: «اليسيرُ من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارَزَ الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا،

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري ومسلم. ومعنى «مَنْ سمَّعَ» أي من عمل عملاً من أجل أن يسمعه الناس لا من أجل الله جوزي على ذلك بأن يفضحه الله، ومعنى «مَنْ راءى» أي: من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم ومعنى «راءى الله به» أي: أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة، (باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار).

وإن حضَروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»[1].

وقال: «إذا جَمَعَ اللهُ الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَنْ أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[2].

وأما صفتهم الرابعة فهي أنهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إنهم يذكرونه حين تحدق بهم الأهوال، وتحيط بهم الكروب، فإذا زال عنهم ذلك عادوا إلى حياتهم الاعتيادية من الغفلة عن الله والذهول عن ذكره. وقد وصف الله المشركين بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم جاءت صفتهم الخامسة: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

الذبذبةُ في اللغة: حكاية صوت الحركة للشيء المعلق. ثم أستعير لكل اضطراب وحركة ومنه قول النابغة:

ألـمْ تـرَ أن الله أعطـاك سـورةً ترى كُلَّ ملْكٍ دونها يتذبذبُ

وورد لفظ (المذبذب) بمعنى الذي يذبُّ عن كلا الجانبين: فهو يرد لكنه يُدفع، فلا يستطيع القرار في جانب واحد. ومنه سُمّي الذباب، لأنه يُطرد ثم يعود، ثم يطرد ثم يعود.

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه الترمذي.

إن المنافق مضطرب الشخصية، تُحيط به الحيرة من كل جانب. لا يستقرُّ على حال ولا يثبت في أحد الصفين، فلا يستطيع اتخاذ موقف حاسم في هذا الصف أو ذاك، فهو ليس بمؤمن صحيح ولا بمشرك صريح. واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى الإيمان والكفر.

ويضرب الرسول ﷺ مثلاً للمؤمن والمنافق والكافر فيقول: «مَثَلُ المؤمن والمنافق والكافر مَثَلُ ثلاثة نفر انتهوا إلى وادٍ، فوقع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر، حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك أين تذهب إلى الهلكة؟! ارجع عودك على بدئك، وناداه الذي عبر: هلمَّ إلى النجاة، فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، فجاءه سيل فأغرقه! فالذي عَبَرَ هو المؤمن والذي غرق المنافق ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ والذي مكث الكافر»[1].

ويضرب ﷺ مثالاً آخر للمنافق فيقول: «مَثَلُ المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين: تَعِيرُ إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى»[2].

ثم يُعَقِّبُ القرآن الكريم على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾.

فلا يستطيع من عاش في الضلال وتشبعتْ به عروقه أن يرجع عنه إلى الهدى والرشاد. هذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾، وليس معناه أنَّ الله يخلُقُ الإنسان خلقاً كاملاً على الضلال، بل المراد: أنَّ العبد يتعاطى أسباب الضلالة فيضل!

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٩، مطبعة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

(٢) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. ومعنى العائرة: المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع.

إن قضية الضلال والهدى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسنن الله الثابتة بما يرسخ في ذهن الإنسان وينطبع عليه، فلا يسمع ـ عند ذلك ـ لما يخالفه. فتتحقق الهداية حين يحافظ الإنسان على طبيعته من غير أن يُفسدَها. وعلى العكس من ذلك يتحقق الضلال حين يفسد الإنسانُ طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، لذلك نجد القرآن الكريم يسند الإضلال والهداية إلى الله تعالى، مومئاً إلى سوء تصرُّفِ الإنسان في إفساده طبيعته كقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ويظهر من هذه الآيات وغيرها أنَّ سبب ضلال هؤلاء إفسادهم لطبيعتهم وقد أسندَ الفعل إلى الله، لأنه واضع هذه السنن الطبيعية.

على أن القرآن الكريم يُسند ـ في بعض الأحيان ـ الهداية والإضلال إلى الله، من غير أن يلمح إلى سوء تصرُّف الإنسان في طبيعته الذي أدّى به إلى الضلال، أو حسن تصرفه الذي أدى به إلى الهداية، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ويضرب العلامة الشيخُ رشيد الخطيب الموصلي أمثلة على ذلك فيقول: «خذ ـ مثلاً ـ البستاني يُهملُ الشجرة ويعطشها فتيبس فتقول: أيْبَسَ البستانيُّ الشجرة وهو كلام صحيح ظاهر، وتقول: أيبسَ اللهُ الشجرة، وهو إسناد صحيح لأنه ـ سبحانه ـ قد جعل السنة الكونية أن تيبسَ الشجرةُ إذا عطشت، وتقول: إذا أيبسَ اللهُ الشجرة فلا يقدر أحد على إعادتها، وتقول: أيبسَ اللهُ الشجرة بعمل البستاني وإهماله وكل ذلك صحيح. فعلى الأول يأتي مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ

﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، فقد نسب الضلال للإنسان نفسه، وعلى الثاني يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فنسب الإضلال إلى الله، وعلى الثالث يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]، وعلى الرابع يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾[1] [إبراهيم: ٢٧].

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن الله تعالى خلق الإنسان مختاراً في أقواله وأعماله وعقيدته، وأن له الإرادة الكاملة التامة في ذلك: فله القابلية على الصلاح أو الفساد[2].

وهذا الخطاب في الآية التي نتحدث فيها: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ مُوجَّه لكل من يصلح له الخطاب كائناً مَن كان، وليس خاصاً بمخاطب معيَّن.

وهذا الأسلوب فيه ما فيه من تيئيس المنافقين الذين انطبعوا في حياتهم على النفاق، فصارت نفوسهم فاسدة لا تصلح للعودة إلى الطبيعة البشرية السليمة.

* * *

(١) رسالة في علم العقائد، لفضيلة الشيخ رشيد الخطيب، طبع بمطبعة الجمهورية في الموصل سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٢) لزيادة الاطلاع انظر: تفسير القرآن العظيم المسمى (أولى ما قيل في آيات التنزيل) للشيخ رشيد الخطيب، المقدمة، ص٥٣-٦٠، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب في جامعة الموصل.

آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ
خَلْقُه ومعصيته

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يبلِّغُني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، وعلى سائر أنبيائه ورسله وآله الطيبين وصحبه المخلصين، ومن اتَّبَعَ هداه إلى يوم الدين!

أما بعد:

فقد ذَكَرَ الله قصةَ سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم في خمسة وعشرين موضعاً. وفي كل مرَّةٍ يعرِضُ القرآنُ جانباً أو جوانبَ جديدةً متعلقة بأبي البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا البحث المتواضع يتضمن موضوعين اثنين:

أولهما: تفسيرٌ لآيات سورة البقرة الواردة في المحاورة بين الله عَزَّوَجَلَّ وملائكته في الحكمة من خلق آدم، وبيان علمه عَزَّوَجَلَّ، وعصيان إبليس بعدم سجوده لـ(آدم) بعد أن أمَرَه الله بذلك.

ثانيهما: الكلام في المعصية الصادرة من سيدنا آدم؛ إذ أكَلَ من الشجرةِ التي نهاه الله عن الأكل منها، وتوبة الله عليه بعد ذلك، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿...وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

ولمَّا كان هذان الموضوعان محلَّ جدلٍ كثير بين الناس؛ إذ عملت الروايات الإسرائيلية عملها في طمس بهاءِ تلك الآيات وجمالها، بل تشويه معانيها تشويهاً مذهلاً، فقد أحببتُ أنْ أتحدث بأهم ما يتعلق بتفسير تلك الآيات الكريمات سائلاً من الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم، وأن يفتح أمامنا فهم كتابِه على وفق ما يريد، ويهدينا الصراط المستقيم، وأن يجعل ما نكتب وما نقرأ حجةً لنا لا علينا يوم القيامة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل!

هكذا خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٤].

تضمنت هذه الآيات الكريمات الحديثَ في محاورة بين الله عَزَّوَجَلَّ والملائكةِ في الحكمة من خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبيانِ فضلِه وعلمِه، وفي عصيان إبليس أمر ربه في قضية السجود.

وحين ننظر في القرآن الكريم، نرى أنَّ اسمه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد ورد فيه خمساً وعشرين مرة في خمس وعشرين آية. وذكرت قصتُه ـ في القرآن الكريم ـ بأساليبَ متعددة، وكُلُّ أسلوب منها وصل القمة في البلاغة والفصاحة.

وهذا لون من ألوان (إعجاز القرآن)؛ إذ لا يتمكن أبلغ البلغاء وأفصح لفصحاء إذا كَتَبَ قصةً ـ مثلاً ـ بأسلوب بليغ فصيح، وأراد أن يكتبها مرة أخرى أن يعيدَ كتابتها بذلك الأسلوب عينِهِ وتلك البلاغة نفسها، ومن تلك الآيات التي تُشبه الآيات التي نتحدث فيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

ومعنى خلقناكم: أي خلقنا أصلكم الذي هو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٣١].

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٤].

لقد خَلَقَ اللهُ تعالى الأرض وأوْدَعَ فيها أسباب الحياة. وبعد ذلك أعلَنَ جَلَّجَلَالُهُ أنه سيقوم بخلقٍ كائنٍ بشريّ على هذا الكوكب يتصرف فيه كيف يشاء، وينتفعُ بما فيه من طاقات واستعدادات وكنوز، وجَعَل كل ما في الأرض له وسَخَّره له تسخيراً! إنَّ هذا المخلوق سيكونُ خليفةَ الله في أرضه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وتسمع الملائكة كلامَ ربِّ العالمين فيدورُ في خُلدِها سؤال عن الحكمة في خلق آدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هكذا جرى الحوار بين الله عَزَّوَجَلَّ والملائكة. ولكن مَنْ الملائكة؟

الملائكة:

الملائكة مخلوقات نورانية لا تُدْرَكُ بالحواس، وقد جُبِلَتْ على الخير وطهرها اللهُ من الشهوات الحيوانية: فلا تتناكح ولا تتناسل، ولا تتصف بأوصاف البشر من الذكورة والأنوثة والأكل والشرب والنوم، وقد خلقها الله مقصورةً على طاعته. ونحن لا نعرف حقيقتها ولا كنهها. ولا نعرف عنها إلا ما أخبرَنا به القرآن الكريم، وما وَصَلنا من صحيح الحديث النبوي الشريف، ويَسَعُنا ما وَسِعَ سلفنا الصالح من (الإيمان بالغيب) وهو قاعدة مهمة من قواعد العقيدة الإسلامية.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

والخليفة: هو من يستخلفه الله على غيره من المخلوقات ليتولى عمارة الأرض، أو هو من يستخلفه الله في تنفيذ أحكامه وتطبيق شرعه.

أي: إني جاعلٌ قوماً يخلُفُ بعضُهم بعضاً قرناً بعد قرن في تنفيذ أحكام الله في الأرض وإقامة حكْمِهِ الذي أمَرَ به سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

إذن ليس المقصود بهذا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحده، بل المراد: بنو آدم كلهم ويدلُّ على هذا دلالة واضحة قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إذ من المعلوم أنَّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يفسد في الأرض ولم يسفك الدماء، ولكن لماذا أخبرَ الله الملائكة بهذا النبأ العظيم. نبأ خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ لقد أَخْبَرَ اللهُ بذلك ليسألوا ـ هم ـ عن الحكمة في خلقهِ، ويأتيهم الجواب من ربِّ العالمين؛ فيعرفوا حكمته جَلَّجَلَالُهُ في خلق هذا المخلوق الجديد.

من أعمال الملائكة في بني آدم:

وفوق ذلك، فإنَّ كل مَلَكٍ من الملائكة قد وكل الله له عملاً معيناً يقوم به بعد خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: فمن الملائكة من وكل بنفخ الروح في الجنين، وكتابة مستقبل رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته.

ومنهم من وكل بمراقبة أعمال المكلفين وحفظها وإحصائها وكتابتها في صحف الأعمال قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢].

ومنهم المعقبات الحفظة: أولئك الذين يحفظون الناس ـ بأمر الله ـ من الشرور الظاهرة والخفية، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ومنهم ملائكة الموت الذين وكلوا بقبض الأرواح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وهناك مهمات أخرى للملائكة ذكرها العليم الخبير في آيات كثيرة وهذه المهمات التي تقوم بها الملائكة ترتبط بالإنسان؛ فإن إبلاغ الله تعالى الملائكة بخلق آدم كان إعلاماً لهم بالمهمة التي سيقومون بها بعد أن يخلق الله هذا الخلق الجديد، ويجعله خليفته في الأرض.

الملائكة تعرف طبيعة البشر:

أما كيف عرفت الملائكة أن هذا البشر سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

فقد عرفت ذلك بما أوقفهم الله عليه من طبيعة هذا البشر الذي يملك الاختيار، ويُقدمُ على أعمال الخير والشرِّ بإرادتِه الكاملة واختياره التام.

وربما عرفت ذلك بعد أن صَرَّح الله تعالى لها أنَّ من ذرية آدم مَنْ يفسد في الأرض ويسفك الدماء فيكون في الآية (احتباك). كما يقول علماء البلاغة[1] ويكون تقدير الكلام: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، وسيكون من ذريته من يُفسدُ في الأرض ويسفك الدماء.

وفي القرآن الحكيم آيات مثل هذا؛ فإنه يحذف من السؤال ما يدلّ عليه الجواب.

أما ما يقال: من أنّ اللهَ خلق خلقاً قبل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الأرض وقد عصوا الله؛ فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقاسَ الملائكة عليهم آدم وذريته، فإن هذا الكلام لا حقيقة له؛ إذ كان آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أول من سكن على الأرض.

الملائكة تسأل عن الحكمة:

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

لقد عرفت الملائكة بالهام البصيرة أنَّ هذا المخلوق الجديد سيجعل له الاختيار في تصرفاته. ومن الأمور الطبيعية أنَّ من يملك الاختيار في أعماله يفسد في الأرض ويسفك الدماء. إن الملائكة خلقها الله على طبيعة خاصة. إنها لا تتصور في الحياة إلا الخير المطلق إنها ترى أنَّ الغاية من الحياة هي تسبيح

---

(١) الاحتباك: هو أحد أقسام الحذف: «وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه». انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب ١/ ٥٦، الطبعة الأولى، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الله تعالى والتقديس له، وهذا العمل تقوم هي به خيرَ قيام؛ فما الحكمة إذن في استخلافه؟

لقد خفيت على الملائكة الحكمةُ في استخلاف الله آدم. إنها لا تعلم أن الله تعالى لو استخلفها هي في الأرض لما استطاعت أن تعمرها، ولما عرفت شيئاً من أسرار الكون. إنها لم تستطع أن تصنع الطائرات ولا المركبات الفضائية، ولا الابتكارات العجيبة التي حيرت الألباب وأذهلت العقول، ذلك أن الملائكة عالم خاص لا يحتاج إلى طعام وشراب وقد خلقها الله لتسبيحه وعبادته. فهي لا تتحرك إلا إذا أمرها الخلّاق العظيم.

وفوق ذلك، فقد أراد العليم الحكيم إخبار الملائكة أنه ـ سبحانه ـ قادر على أن يجعل كل شيء مسخراً لعبادته بالجبلّة والقهر، ولكنَّ اللهَ لم يُردْ ذلك في خلق آدم، بل أراد أن يكون الإنسان مختاراً في عبادتِه: يقف على مفترق الطرق ويتنازعه طريقان، طريق الخير وطريق الشر. طريق الخير قد حُفَّ بالمكاره، وطريق الشر قد حُفَّ بالشهوات. فهو يترك أهواءه وشهواتِه مقبلاً على طاعة ربه عن طواعية واختيار. إنه يقدر أن يفعل المعصية، لكنه لا يفعلها خوفاً من الله وحباً له؛ لذلك أعدَّ الله لعباده الصالحين النعيم المقيم في العالم الآخر!

وهكذا يجيء قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ ليشيرَ إلى أنَّ اللهَ تعالى هو أعلم بمراداته، وأنَّ الملائكة إذ سألت عن الحكمة في خلق آدم مختاراً لم تعلم حقيقة علم الله ومراده في أنه يريد خلق عباد له يأتون إلى عبادته طائعين مختارين.

وبهذا أثبت الله لنفسه الكريمة المقدسة: العلم بحكمته في خلافة آدم، ونفى هذا العلم عن الملائكة موضحاً أن الإنسان يكون خليفة الله بعلمه! والله أعلم!

هل صرَّحت الملائكة بالقول؟

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أن الملائكة لم تجهر بذلك السؤال، بل دار في خَلَدها، وقد حكى القرآن الحكيم ما دار في خلدها عن الحكمة في خلق الإنسان مختاراً في تصرفاته: فيصدر منه الخير والشر. وَرَدَّ عن السؤال بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وهذا المعنى الذي ذكرته له أمثلة كثيرة في كتاب الله: «فإنَّ القرآن كثيراً ما يُصَوِّرُ المعاني بصورة السؤال والجواب، أو بصورة الحكاية؛ لما في ذلك من قوَّة البيان والتأثير في النفوس فهو يُوَجِّهُ بها الأذهان بقوَّة إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾؟. فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا وإنها ستحوي عدداً كبيراً، وكقوله تعالى بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فقد قالوا: ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام على التمثيل: يبيّن به سهولة ذلك عليه، وإن خلقتها كانت من غير تكلّف ولا مشقَّة، بل هي بمنزلة ما يقولُ للمأمور: افعل فيفعل، من غير تريّث ولا توقّف؛ فَعَبَّرَ عن هذا بالأمر والطاعة. وهكذا الكلام في خطاب الله سبحانه للملائكة ولإبليس؛ يراد به بيان الواقع في صفة طبيعة الملك وطبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان؛ تحذيراً للإنسان من القوَّة الشرية فيه، كاشفاً ما دار في خَلَدِ الملائكة عن هذا المخلوق»[1].

---

(١) أولى ما قيل في آيات التنزيل للأستاذ العلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي ١/ ٣٤، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب في الموصل ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

والذي يرجحُ ما ذكرناه هنا قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ فإنّ قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يُومئ إلى أنَّ السؤال الذي كان من الملائكة عن الحكمة في خلق الإنسان كان مجرد خواطر كشف عنها العليم الخبير!!

آدم وتعلُّم الأسماء:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

لقد أودع الله تعالى في آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفي نسله من بعده القدرة على البحث والتنقيب والكشف عن خصائص الأشياء، والوقوف على أسرارها. أما الملائكة، فليست كذلك. إنها لا تملك القابلية في الإبداع والابتكار. إنَّ علمها يسير في اتجاه واحد لا يتعداه.

وهكذا عرف آدم وأبناؤه من بعده كثيراً من تلك الحقائق. وكلما عرف حقيقة وضَعَ لها اسماً تُعْرَفُ به.

وهذا لا يعني أن آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عرف أسماء الموجودات ـ كلها ـ ما كان منها وما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فإنه لا يستطيع الإحاطة بذلك كله، وإنما المراد ـ والله أعلم ـ ما وَقَعَ نظرُهُ عليه، وما يحتاجه هناك في طعامِه وشرابه. أو يُرادُ به: الحقائق التي تنكشف أمام آدم وذريته ويهتدون إليها.

ولربما أريد بالأسماء هنا: المسميات وعبر عنها بهذا اللفظ للصلة الوثيقة بين الدال والمدلول، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر. فالمراد بالأسماء إذن: حقائق المسميات، وما لها من قوانين في النفع والضر؛ فإنَّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن بحاجة إلى معرفة مجموعة كثيرة من الأسماء بلغات عديدة أو بلغة واحدة، بقدر ما هو بحاجة إلى معرفة خصائص هذا الكون الذي يعيش فيه.

لقد أعطى الله عَزَّوَجَلَّ سرَّ القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فاستطاع بذلك تسمية الأشياء بأسمائها. وهذه القدرة أمر مهم في عمارة الأرض وتطوّرها؛ إذ لو لم يُعط الإنسان ذلك، لما استطاع من التفاهم إلّا بمشقة هائلة، لا تنمو الحياة فيها ولا تتقدّم. أما الملائكة، فلا حاجة لها في هذه الرموز؛ لأنّ الله قد خلقها ووكَلَ لها أمر تسبيحه وتحميده. إذن هم ليسوا بحاجة إليها.

ويبدو من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾: أنَّ الله لم يعرض الأسماء على الملائكة، بل عرضَ عليهم تلك المخلوقات نفسها التي تطلق عليها هذه الأسماء. ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإن في هذا دليلاً على أن ما عُرِضَ لم تكن الأسماء، وإنما هي المخلوقات نفسها فلما عَلَّمَ الله آدم هذه الرموز؛ ثم عرضها على الملائكة، فلم يعرفوا من ذلك شيئاً عند ذاك أعلنوا أمام عجزهم هذا: تسبيح الله ومحدودية علمهم الذي وهبهم الله إياه. أما آدم، فقد عرف ذلك؛ لهذا جاء التعقيب القرآني: قال ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

هذه هي الدائرة التي امتحن الملائكة فيها؛ فبدا عجزهم؛ فأعلمهم آدم بما عجزوا عن معرفته.

لقد كشف هذا الامتحان عن كبر استعداد آدم الفطري على الملائكة في العلم الذي يكتسب بالتجربة والمجاهدة والمعاناة. والملائكة لا تستطيع ذلك؛ لأنه ليس من طبيعتها المجاهدة والمعاناة. أما آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد أودع الله فيه القدرة على التعلم حين تتوجه ملكاته إلى النظر في الكون والحياة، وربط العلل بالمعلولات. وهكذا ينتقل الإنسان من طور إلى طور أما الملائكة، فليس

لها ذلك، ولا يطرأ عليها تحول أو تبدل. ومهما أمتدَّ بها العمر فلا تزداد علماً ومعرفة عن طريق الكسب الذاتي، ولا يكون لها من علم إلا ما تتلقاه مباشرة عن الله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لذلك نجد الاختلاف الكبير بين خلقه الإنسان والملائكة: الإنسان عالم مستقل له إرادته واختياره لذلك كان منه المهتدي، والضال، والصالح، والطالح، والمؤمن والكافر. أما الملائكة، فهم عالم آخر ليس له ما للإنسان من اختيار. إن الملائكة نمط واحد من الطاعة المطلقة المستسلمة لله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولذلك لا تستطيع الملائكة أن تقوم بدور الخلافة عن الله في الأرض مع قدرها العظيم وشرفها الكبير ومنزلتها العالية، لأن الخليفة لا بدَّ أن يكون مستقلاً في تصرفاته كلها، وليست الملائكة كذلك.

ويبدو من الآية ـ والله أعلم ـ إن هذا العلم الذي علَّمه إلى آدم كان في آنٍ واحد. ولا عجب في ذلك؛ فإنَّ الله على كل شيء قدير. كما أنه ليس ببعيد أن يكون هذا العلم قد جاء بالتدريج في أوقات مختلفة؛ لأن لفظ (عَلَّمَ) يُشعر بذلك، كما قال الله تعالى في مخاطبة النبي محمد ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال في سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

لكن المتبادر إلى الذهن أنّ التعليم كان دفعة واحدة والله أعلم وهذا يذكرنا بسيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقد كان ذا بصيرة ملهمة في تأويل الأحلام، فلما فسَّرَ لصاحبيه في السجن ما رأى كل منهما من رؤيا قال لهما بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ۚ﴾ [يوسف: ٣٧]. أي إن هذا التأويل بعض ما وَهَبَهُ لي

من استعداد للعلم والفهم والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي منحه ذلك الفهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [يوسف: ٢٢].

وهذا العلم الذي أعطاه اللهُ ليوسف لم يكن دروساً أُلقيت عليه بل كان نوراً قذفه الله في فطرتِه، وجعل له ذلك الاستعداد الذي ذكره ربُّ العالمين على لسانه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف: ١٠١].

وإذا كان آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذا استعداد فطري على مدى العصور؛ فإنَّ هذا الاستعداد جعل أبناءه يكتشفون من أسرار الكون إلى يومنا هذا، بل إلى أن تقوم الساعة. وهذا الاستعداد في الاكتشاف والاختيار انفرد به الإنسان دون غيره من الملائكة أو الحيوان.

لماذا خُصَّت الأسماء بالذكر؟

ولكن لماذا خصَّ الله الأسماء بالذكر هنا فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾؟ والجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ أن الله أراد أن يلمحَ إلى أنّ معرفة الأسماء هي أول ما يتعلم من العلم. وهذه هي الحقيقة التي أقرَّها العلم قديماً وحديثاً؛ فإنّ الطفل أول ما يتعلمه الأسماء. هذه مسألة.

ومسألة ثانية: هي أن الملائكة إذا كان قد خفيت عليها الحكمة في خلق آدم وهم مَنْ هم، فنحن ـ أيضاً ـ قد خفيت وتخفى علينا أسرار كثيرة من أمر هذا الكون العظيم فليس في قدرة الإنسان أن يعرف كُلَّ سرٍ من أسرار خلقه، لأن الإنسان لم يُؤت من العلم إلا قليلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تنزيه لله عن أن يحيط بعلمه وبما أراده أحد.

إن مخلوقات الله كلها ليس لها من العلم إلا ما أتاحه الله لها، فإنَّ العلم يأتي من الله فقط، والله عَزَّوَجَلَّ يكشف عن علمه ما يشاء لمن يشاء من خلْقه.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾.

وهذا طلب من الله إلى آدم أن يخبر الملائكة بأسماء تلك المخلوقات التي لم يعرفوا أسماءها. وهنا يُخبر سيدنا آدم الملائكة بأسمائها بلغة يفهمونها لا نُدْرِكُ نحن حقيقتها ولا كَلَّفنا الله بمعرفة ذلك.

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في تعليم آدم الأسماء وعرضها على الملائكة؟ والجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ لإظهار شرف آدم في أمر اصطفائه؛ كي لا تظن الملائكة أنها أفضل من البشر بما يعلمونه من علم.

بداية التعليم:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

هذا لون من ألوان إعجاز القرآن؛ ذلك أن بداية العلم للبشرية كلها هي في تعلم الأسماء. وإذا كان الله تعالى قد علَّمَ آدمَ الأسماء، فإن أي إنسان كان في أية لغة كانت من لغات العالم، يكون تعليمه بتعلم الأسماء، وبعد ذلك يبدأ في تحصيل العلم. وهذا هو ما أشار إليه القرآن؛ وهو دليل من أدلة إعجازه؛ إذ حدَّد لنا كيف تكون البداية في التعلم.

سجود الملائكة وعصيان إبليس:

لقد عرف آدم الأسماء كلها بعد أن عرَّفها الله له، ونجح في هذا الامتحان وبان فضل علمه على الملائكة؛ إذ وهبه سر المعرفة، الأمر الذي جعله أعظم رفعة من الملائكة؛ فاستحق بذلك: التكريم. وهذا التكريم يكون من الملائكة؛ إذ هم الذين سألوا عن الحكمة في خلافته مع أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

ولم تتأخر الملائكة عن السجود؛ لقد استجابت كلها أمر ربها بالقبول والرضا؛ فسجدت سجود تكريم وإجلال لا سجود عبادة؛ إذ لا يستحق العبادة غير الله. ونحن لا نعرف حقيقة ذلك السجود وكيفيته.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

السجود في اللغة:

هو الخضوع والانقياد. وأعظم مظاهره أن يخرَّ الإنسان ساجداً إلى الأرض ويضع جبهته في التراب. ولقد كان بعض الأقوام يحيون الملوك والعظماء بالسجود. ومن ذلك سجود يعقوب وأولاده ليوسف. وينقسم السجود على قسمين: سجود العقلاء لله على الوجه المشروع، وسجود المخلوقات كلها لمقتضى إرادته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

لمن الخطاب؟

لقد صدر الأمر من رب العالمين للملائكة بالسجود لآدم. واستجابت الملائكة لأمر الله. أما إبليس، فلم يسجد: فهل الخطاب في الآية كان قد وجه إلى الملائكة وإبليس معاً؟ أم إلى الملائكة وحدها؟

الذي يبدو أنّ الأمر بالسجود صدر للملائكة والجن معاً، ولكن لم يذكر الجن في التعبير القرآني على طريقة إيجاز القرآن، فيكون قد حُذف من المستثنى منه ما دلَّ عليه بنوع المستثنى، فيكون التقدير: وإذ قلنا للملائكة والجن: اسجُدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن فلم يسجد.

وفي عرف التخاطب أمثلة كثيرة لهذا الذي نقرره في فهم الآية الكريمة، فإنَّ الأمر حين يصدر إلى الأعلى يكون الأدنى مخاطباً به من باب أولى بالتبعية

فإذا صدر الأمر إلى رئيس دائرة ما أن يحضر إلى دائرته كل يوم في الساعة الثامنة صباحاً، فإن كل موظف في هذه الدائرة مطالب بالحضور في الساعة نفسها لأنَّ الموظفين هم أدنى رتبة من المدير وهكذا شمل الأمر الموظفين ولو لم يذكروا فيه.

وعلى هذا نقول: إن الملائكة أكبر رتبةً من الجن فإذا صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم كان الجن مشمولاً بأمر السجود من باب أولى ـ ولو لم يذكروا بالاسم ـ وهكذا يكون إبليس مأموراً بالسجود لآدم مع الملائكة.

والذي يدل على أن الأمر بالسجود صادر إلى إبليس ـ أيضاً ـ بالتبعية آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

ويفهم من قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾: أنّ الأمر قد صدر من رب العالمين إلى الجن بالسجود لآدم.

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢].

وهكذا يبدو واضحاً أنّ الأمر بالسجود قد شمل الملائكة والجن، وإن إبليس كان من الجن فعصى أمر ربه فلم يسجد.

إذن قد صدَرَ الأمر من رب العالمين إلى الملائكة والحاضرين بالسجود لآدم وإبليس كان حاضراً وإن لم يكن من الملائكة. ولربما لم يذكر إبليس في الأمر بالسجود؛ لأن الملائكة كانت الجمهور الأكبر من الحضور.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] فإنه يشير إلى أن الكِبْرَ قد ملأ نفس إبليس فصدَّه عن السجود لأدم؛ فاستكبر عن أمر الله.

بين الملائكة والجن:

ولكن هل كان إبليس من الملائكة أم لا!

للعلماء في هذا مذهبان:

المذهب الأول: إنه كان من الملائكة. ودليلهم ظاهر قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فلو لم يكن من الملائكة لما توجَّه الأمر إليه بالسجود. ولو كان من غير الملائكة ولم يسجد لم يكن عاصياً؛ لأن الأمر لم يتوجه له.

المذهب الثاني: إنه كان من الجن. ودليلهم قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. فإن هذه الآية تصرح أنه كان من الجن.

وهذا المذهب الثاني هو الصحيح لموافقته لصريح القرآن الكريم.

أصناف ثلاثة:

ولقد روى الإمامان أحمد ومسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «خُلقَت الملائكةُ من نور، وخُلقَ الجانُّ من مارج من نار، وخلق الإنسان مما وُصِفَ لكم»[1].

والرسول ﷺ إذ يذكر لنا هذا لا يريد به مجرد الإخبار عن خلق هذه الأصناف ـ والله أعلم ـ إذ لو كان يريد ذلك لاكتفى بذكر النور الذي خُلِقَتْ منه الملائكة. والقرآن الكريم تولى تقرير الأصلين الآخرين في آيات كثيرة لكنه ﷺ أراد أن يشير إلى أبعد من ذلك: أراد أن يقرِّر في أذهان الناس: أننا لا نعيش وحدنا في هذا الكون، بل هناك صنفان آخران هما الملائكة والجن. فلا بدّ لنا أن نختار لأنفسنا ما أصله نور أو ما أصله نار.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٤.

هل خلق إبليس مختاراً؟

خلق الله إبليس مختاراً، شأنه شأن سائر الجن، لأنه منهم: فيستطيع أن يقبل على أعمال الخير وأعمال الشر بإرادته الكاملة التامة.

فلو لم يعطه الله الاختيار التام لما استطاع أن يعصي ربه بعدم السجود حين أمره بذلك. ويدل على هذا دلالة واضحة قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ﴾. لأنه لا يُقال أبى إلا إذا قدر على فعل الشيء، لكنه امتنع عنه. ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن الجن قسمان: مؤمنون وكافرون. وتقسيمهم إلى قسمين دليل على أنّ لهم إرادة واختياراً، قال الله تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥]، والقاسطون: هم أولئك الجائرون الحائدون عن صراط الحق.

على أن الجن يُحشَرُ يوم القيامة ويحاسب على ما قدّم من عمل، فيثاب أو يعاقب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

إن هؤلاء الذين يدخلون النار من الجن قد خالفوا مخالفة ناشئة عن تكليف، والتكليف لا يكون إلا إذا استوفى شروطه. فقد أقدموا على المعصية باختيارهم التام.

وبعد:

فيقول الأستاذ محمد متولي الشعراوي في هذه الآيات:

«هنا يريد الله أن يعلمنا عدة حقائق هامة:

أولاً: إنه لا أحد يستطيع أن يحيط بمرادات الله حتى ولا الملائكة المقرّبون. ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو وحده العليم. ولا أحد من خلقه يستطيع أن يصل إلا إلى ما يريده الله أن يصل إليه. وإن لكل مخلوق مقامه الذي لا يتعداه.

ثانياً: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين جعل الإنسان خليفة له في الأرض سخّرَ له كل شيء تسخيراً ـ أي: إن كل شيء مسخر لخدمة الإنسان بأمر الله. حتى جسد الإنسان وجوارحه تأتي يوم القيامة تشهد عليه؛ لأنها مسخرة له في الحياة الدنيا فقط. فهي تنفذ له الخير والشر، وتتبع إرادته بأمر الله.

ثالثاً: إن الله حين خلق الإنسان يريد خلقاً مختاراً في أن يفعل أو لا يفعل، حتى يقبل هذا الخلق على العبادة عن اختيار وحب.

رابعاً: إن كل شيء في هذا الكون أصله من الله، ونهايته إلى الله. وإن الثمرة الأولى والشجرة الأولى والإنسان الأول وكل خلق أول هو خلق مباشر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا للأسباب التي يتم لها ما يحدث في الدنيا.

خامساً: إن اللغة علَّمها الله لمخلوقاته؛ لأن اللغة هي ابنة السماع؛ ولذلك فلا بد أنّ آدم وهو أول من خُلِق يكون قد علمه الله اللغة حتى يستطيع أن يتحدث بها، ثم أخذها أبناؤه وأحفادهم بالسماع وتعددت اللغات حسب البيئات المختلفة»[1].

---

(١) معجزة القرآن لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ٣/ ١٤٥ مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

أضواء حول معصية آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

من الصفات التي يجب أن يتصف بها كل رسول من الرسل صفة العصمة كما قرر ذلك علماء العقائد. والعصمة في اللغة: الحفظ، وفي الاصطلاح: هي لطف من الله تعالى يحمله على فعل الخير ويزجره عن فعل الشر مع بقاء الاختيار، تحقيقاً للابتلاء. فلا يصدر من أي واحد كان منهم مخالفة لما أمر الله به، ولكن: كيف صدرت المعصية من سيدنا آدم حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها؟ فإن الله تعالى نص في قرآنه على أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عصى ربه فقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وصدور العصيان كبيرة من الكبائر بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

والغواية: إتباع الشيطان بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. فكيف صدرت هذه المعصية؟

وننظر في القرآن الكريم، فنجد أن قصته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخروجه من الجنة وَرَدَ في سبع سورٍ من القرآن الكريم وهي: (البقرة) و(الأعراف) و(الحجر) و(الإسراء) و(الكهف) و(طه) و(ص). وفي هذا المقال نقف أمام آيتين من سورة (طه) هما قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

ترتبط هاتان الآيتان بما قبلهما من آيات، فإن الآية السابقة لهاتين الآيتين جاءت منبهةً النبي ﷺ ألا يعجل بالقرآن: بأن لا يسبق الوحي، حتى ينتهي ـ جبريل ـ من أدائه، ذلك أن هذا القرآن هو عهد بين النبي وربه فلا بد له أن يتثبت منه كل التثبت، ليتمكن من الوفاء بذلك العهد، فإن سيدنا آدم كان بينه وبين الله عهد فنسيه فوقع في المعصية، لذلك نجد الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يدعو رسوله

الكريم إلى التثبت من الوحي فجاءت الآية التمهيدية التي سبقت آيات قصة آدم وخروجه من الجنة من نسيان أوامر الله ووصاياه ووجوب الثبات عليها: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]. أما العهد الذي عهد به الله إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهو: أن أباح له الأكل من كل ما في الجنة سوى الأكل من شجرة واحدة. وربما كان المنع من أكل تلك الشجرة من أجل تربية الإرادة فيه، والتحرر من شهوات النفس؛ لأن الله تعالى: أراد أن يعده لخلافة الأرض بهذا الاختبار، وتنبيهه إلى ذلك الصراع الذي ينتظره مع الشيطان.

وإذا كان الله جَلَّ جَلَالُهُ قد أخذ هذا العهد على آدم، فقد أخذ العهود من أبنائه كلهم، إذ كل أمر ونهي يتوجه إلى البشر إنما هو عهد، وأوثق ما بيننا وبين الله من عهود: عهد الربوبية الذي أقرت به فطر الناس منذ الأزل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ومهما يكن من أمر، فإن سياق الآيات الكريمة يشير إلى أن معصية آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما كانت إلا نسياناً، بدليل ما سبقها من آيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٢].

لقد خلق الإنسان مفطوراً على حُب البقاء وجاءت وسوسة الشيطان من هذا الجانب: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وما كان من سيدنا آدم إلَّا أن صدَّق إبليسَ فيما وَسْوَسَ له بعد أن جاءه في صورة الناصح الأمين. لقد صدقه آدم، لأن فطرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت صفحة بيضاء من الطهر والنقاء، لم يعلقْ بها شيء من الدنس والشر والسوء الذي يكدر طهرها ونقاءها وصفاءها. وصاحب هذه الفطرة السليمة لا يسيءُ الظنَّ بأحد، بل يصدق كل ما يقال له ويلقى إليه. وفي هذا المعنى أنشد نفطويه:

إن الكـريم إذا تـشاء خدعتَـه وتـرى اللئيم مجرِّبـاً لا يُخْـدَعُ

لكن التعبير القرآني جاء هنا بلفظ (عصى): ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ لأن منزلة سيدنا آدم ليست كمنزلة الخلق الآخرين: فقد خلقه الله بيده، وأسْجَدَ له ملائكته، وأسكنه جنته، فإنَّ من هذا شأنه يجب عليه أن يكون يقظاً في كل لحظة من لحظات حياته!

وفوق هذا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ كان قد حذَّر سيدنا آدم من مكايد إبليس، وأبان له أنه عدو له ولزوجه، فلا بدَّ له أن يحترس كل الاحتراس من مكايده. لكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ انطلت عليه وسوسة الشيطان، ووَقَعَ في أحابيله بعد أن حَلَفَ أنه ناصحٌ له أمين. ويقول بعضُ أهل العلم:

«إن آدم من شدة تعظيمه لله اعتقد أنه لا يمكن أن يحلف به أحد وهو كاذب، فأنساه حلف إبليس بالله العهد بالنهي عن [الأكل من] الشجرة»[1].

فكانت نتيجة ذلك ما أصابَ سيدنا آدم من الغواية: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

والغواية: هي الضلال عن الرشد. أي الذهاب من غير طريق الصواب.

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٤/ ٥٣٥ الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى.

وإذا كانت هذه المخالفة قد سميت معصية، فلأن عظم الذنوب إنما تقع لمخالفة من يأمر بها إذا كان عظيم القدر، لا لكثرة المخالفة في نفسها.

ولا بد لنا أن نقف هنا وقفة قصيرة أمام كلمة (نَسيَ)، إذ كيف يكون الإنسان عاصياً مع النسيان، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد رفع عن عباده إثم النسيان؟

وخير ما نرجع إليه في فهم كلمة (نسي) هو القرآن الكريم، فإنه يفسر بعضه بعضاً، فقد ورد لفظ النسيان بمعان كثيرة من أهمها؟

١ ـ **نقيض الذكر**: أي أن الإنسان ينسى ما حفظه، ومثاله قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

وهذا الضرب من النسيان ليس من قبيل نسيان آدم، إذ إنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما أكل من الشجرة وهو ناس نهي الله له عن الأكل منها، ذلك أن الشيطان قال له ولزوجه: «ما نَهَاكُما رَبكما عن هذه الشجرة إلَّا أن تكونا مَلَكيْن أو تكونا من الخالدين». وهذا يعني أن إبليس ذكَّره ما نهاه الله عنه وأعاده إلى ذهنه.

٢ ـ **نسيان فيه معنى السهو**: كما ينسى الكاتب قلمه على المنضدة وهو خارج إلى عمله. ومثاله ما قصه علينا القرآن الكريم عن فتى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ قال ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٤].

وفي هذا المعنى ـ أيضاً ـ قول موسى للعبد الصالح: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣].

وبعيد جداً أن يكون نسيان سيدنا آدم من هذا القبيل، فأنَّ مَنْ يقعُ منه مثلُ هذا السهو يتنبَّه لسهوه بأقلِّ حركة أو إشارة أو كلمة. ويبعد أن يكون آدم قد أكل من الشجرة وهو ساهٍ بعد أن ذكَّرَه الشيطان بذلك.

٣ ـ **ذهابُ الاهتمام بالشيء: ـ ومثاله قَولُ الله تعالى: ـ** ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. ومعنى نَسُوا الله: لم يهتموا بأمره، ولم يبالوا أوامره ونواهيه،

وهذا الذي يطلق عليه اسم نسيان القلوب لا العقول. أما معنى (نَسيهُم): فإنهم لما أعرضوا عن الاهتمام بأمره ـ سبحانه ـ صرف عنهم عنايته وإحسانه، ووكلهم إلى أنفسهم وإلى ما أعدَّ الله لهم من عذاب مهين يوم القيامة. وفي هذا المعنى ورد قول الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وربما كان هذا أقرب المعاني ـ والله أعلم ـ ذلك أن الله تعالى لا يطرأ عليه النسيان قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ونستطيع أن نقول ـ بعد هذا ـ إن النسيان الذي أُسند إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أكلَ من الشجرة ليس من قبيل النسيان الذي أسند إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإنما هو من النسيان الذي أسند إلى الناس حين أعرضوا عن الاهتمام بأوامر الله ونواهيه.

وإذا كان نسيان القلب لله معصية من أكبر المعاصي، فإن هذا لا يعني أن حقيقة الإيمان قد زالت من قلبه، بل معناه أن تزيين الشيطان للإنسان أزال عن قلبه ما كان يجب أن يهتم به ويرعاه من امتثال أوامر الله ونواهيه امتثالاً كاملاً تاماً[1].

وأما قوله «ولم نَجِدْ له عزماً»، فإن لفظ «العزم» يطلق في اللغة على أكثر من معنى. ويفسر الراغب الأصفهاني في مفرداته العزم والعزيمة بـ«عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال عزمت الأمر، وعزمت عليه واعتزمت»[2].

---

(١) لزيادة الاطلاع انظر: من قصص القرآن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تأليف البهي الخولي ص١٥٤-١٥٨ الطبعة الثانية، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، الناشر مكتبة وهبة.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٣٤ تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر البابي الحلبي ١٣٨١هـ.

ويستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧].

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ويفسر العزم في الآية الأخيرة فيقول: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: محافظة على ما أمر به وعزيمة على القيام[١].

وإذا تأملنا في اللفظ القرآني هذا، وأردنا زيادة معنى وإيضاح، نرى أن العزم قد جاء هنا بمعنى: «انعقاد الضمير على فعل أمر من الأمور وتوفر الإرادة له»[٢].

وهناك معنى ثان مفاده: «المضي فعلاً فيما انعقد عليه الضمير والاجتهاد في إنفاذه والصبر على ما يعترض طريقه من مشقة وأذى»[٣].

فلم يكن عهد الله الذي نسيه آدم قد أزيل من قلبه مرة واحدة حين طروء النسيان عليه، بل إن ذلك كان قائماً فيه، لكن ذلك القيام قد فقد قوته وحرارته، فأدى ذلك إلى ارتكاب ما نهاه الله عنه. فلم يكن له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عزم على فعل ما نهي عنه.

على أن نسيان آدم للعهد الذي أخذه الله عليه، وتحذيره الشديد له من وساوس إبليس يدل على أن الإنسان ضعيف، وإنه بحاجة ـ دائماً ـ إلى الاستعانة بالله، ليجنبه الخطأ والزلل، ويوفقه لأحسن العمل.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٣٤.

(٢) من قصص القرآن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ص١٥٨.

(٣) من قصص القرآن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ص١٥٨.

ولا بدَّ لنا أن نشير هنا إلى أنَّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما عصى ربَّه إلَّا بعد أن صارت له إرادةٌ حرة في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه، فيستطيع بإرادته من الإقدام على الطاعة أو العصيان وهو بهذا «العصيان» قد غَوَى أي ضلَّ الطريقَ السويَّ الذي أمَرَ اللهُ به.

ونتأمل هذه الآية مرةً أخرى، فنرى أن الحكيم الخبير امتحن سيدَنا آدمَ قَبلَ أن يعهد إليه بخلافةِ الأرض ولم ينجحْ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك الامتحان، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لم يتركه، بل تداركه برحمته، فاجتباه وهداه، لذلك عقَّبَ اللهُ سبحانه على ذكر معصية آدم وذكر رحمته له وتوبته عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

لقد تجاوز اللهُ عن سيدنا آدم ما صدر منه من مخالفة بعد فترة من الزمن. ثم اصطفاهُ للتوبة بعد تلك المعصية. والقرآنُ الكريم هنا لم يبيِّنْ سَبَبَ التوبة، لكن بينه في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

أي أن توبة الله عليه كانت بسبب تلك الكلمات. ويدل (حرف الفاء) على هذا دلالة واضحة، إذ هو يفيد التعقيب. أما الكلماتُ التي تلقاها آدم من ربِّه فهي قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

الوحي والنبوة:

وإذا كانت كلمتا (عصى) و(غوى) قد وصف بها سيدنا آدم هنا، فإن أوصاف التكريم قد تتابعت عليه بعد ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ و﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ و﴿وَهَدَىٰ﴾.

إن في قصة عصيان آدم وتوبة الله عليه تنبيهاً للناس جميعاً، يدعوهم إلى التوبة والإنابة إليه إذا صَدَرَت عنهم معصية، فإنَّ أباهم كان قد عصى وتاب فتابَ اللهُ عليه واجتباه!

وإتماماً للفائدة أنقل ما ذكره الأستاذ الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القصة قال: «إذا كان الله قد خلق الخلق وبدأهم بآدم، فكان لا بد أن يعلم ما يريده منهم. هذا الإعلام هو أو إبلاغ عن دين الله للإنسان. هو أول وحي علمهم ما يجب أن يكونوا عليه في حركة حياتهم.

ومن العجيب أن أمر آدم بالنسبة للوحي أخذ خلافاً طويلاً: كيف يكون موحىً إليه وتصدُر عنه المعصية؟ ولم يفطن هؤلاء إلى أن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خُلقَ بمثل نوعين من البشر: نوع نبوةٍ معصومة، ونوع غير نبي يقع في الخطأ والخطيئة بل يكفر بخالقه! وما دام أباً لهذين النوعين، فيجب أن يتمثل في خلقه وتكوينه النوعان معاً: النوع الخطأ الذي يعهد إليه فينسى ويعصي ويوقعه الشيطان في الخطأ بالغرور، ولا يملك أن يسيطر على نفسه أمام نزواته وشهواته، ونوع آخر: هو الذي اجتباه الله ليقوم بدور النبوة: فهو معصوم من الخطأ.

وعندما خَلَقَ اللهُ آدم للخلافة في الأرض، لم يشأ أنْ يخرجه إلى حركة الحياة دون أن يدربه تدريباً بشرياً عملياً يباشر فيه الواقع، ولا يرسله إلى الأرض بكلام نظري بل يجب أن يتعرف الواقع، لأن الإنسان قد يأخذ كلاماً نظرياً يقتنع به، ولكنه حين يطبقه عملياً يتعذر عليه أن يجعل التطبيق متمشياً مع المنهج النظري. وشاء الله رحمةً بآدم ألَّا ينزله إلى الأرض بمنهج نظري: افعلْ أو لا تفعل إلا بعد أن يربيه تربية دينية على المنهج بافعلْ ولا تفعلْ ويحذره من العقبات التي تصادف المؤمن وهو إغواء الشيطان وإغراؤه. حتى إذا تمت التجربة ورآها آدم وعاشها كواقع، أخرجه إلى الأرض ليباشر مهمته التي خلق من أجلها. وإذا كنا نحن نريد أن نُدَرِّب الإنسان على شيء: كأن ندرب إنساناً ليصبح لاعباً

ماهراً في كرة القدم، لا نشرح له نظرية اللعب أولاً ثم نلقي به إلى مباراة عالمية. لا، إننا نأخذه ونعد له مكاناً مريحاً مناسباً، ونكفيه مؤونة الحياة وندربه على اللعب بأمانة. حتى إذا ما أخطأ لا نحاسبه، ولكن نقوّمه. فالخطأ في دَوْر التجربة خطأ مردود بالتوجيه فقط وليس بالعقاب، ولكن ـ الخطأ ـ في غير دور التجربة خطأ معاقب عليه. والفرق بين الأمرين أن خطأ التجربة يتم فيه تعطيل الصواب، ولكن خطأ الواقع يعاقب عليه. فلم يكن اللهُ ليخبر آدم بمنهج نظري ثم بعد ذلك يعاقبه على ما يقوم به. لم يكن ذلك، وإنما كان أنْ دربه أولاً في مكان سماه جنة، **وبعض الناس يظن أنها جنة السماء ويظلمون آدم ويقولون: إننا خُلْقنا للجنة، ولكن معصية آدم هي التي أخرجتنا منها! لا، افهموا جيداً إن الله في أول بلاغ عن آدم قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فكان آدم أولَ مخلوق للأرض، فلا تظلموه وتقولوا: إننا خلقنا للجنة فأخرجتنا معصية آدم إلى الأرض.**

إذن فالجنة التي عاش فيها آدم ليست جنة الآخرة التي وعدنا الله بها، ولكنها جنة وجدت فيها كل مقومات الحياة: يأكل منها ما يشتهي ويريد بدون عمل منه، وبعد ذلك جاء أمر للتكليف بافعلْ ولا تفعلْ. فكل الرسالات مضمونها أفعل كذا ولا تفعل كذا.

ماذا قال الله لآدم؟ كُلْ من كل شيء ولا تقرب، هذه الشجرة هذا أمر بافعل ولا تفعل. وبعد ذلك حذره من إغواء الشيطان. قال له: الشيطان هو العقبة، وعداوته لك مسبقة، لأنه امتنع أن يسجد تكريماً لك، وما دام عدوك فسيعمل على أن يجعلك تقع في الخطيئة حتى لا يتميز هو بأنه هو المخطئ الوحيد.

فلما أخطأ آدم في دور التجربة نسي هكذا. قال القرآن مرة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، وبعد ذلك دلَّاه الشيطان بغرور، قال: ما منعكما أن تقربا هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين! كان يجب على آدم ألَّا يكون غافلاً إلى هذا الحد. يجب ألَّا ينسى. فعندما يقول له الشيطان إن الله

منعكما من أن تأكلا من هذه الشجرة حتى لا تصيرا ملكين وتعتبرا من الخالدين. كان يجب على آدم أن يقول له: إذا كنت أيها الشيطان تعلم أن الأكل من هذه الشجرة يجعلك ملكاً ويجعلك خالداً، فلماذا تضاءلت أمام ربك وقلت له: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]؟ لماذا لم تذهب أنت لتأكل من الشجرة وحدك لتصير من الخالدين؟

إن الله يريد أن يعلمنا الفطنة، لأن الشيطان حين يضفي بغروره إلى أي إنسان يجب أن يناقشه مناقشة العاقل الفاهم، لأن الشيطان ليس له حجة ولا سلطان.

وبعد ذلك أكلا من الشجرة. فحين أكلا من الشجرة عصى آدم ربه. إن آدم عصى في دور التدريب وهو في هذه المعصية لا يعاقب، وإنما يُعلَّم الصواب ويوجَّه إليه، وكذلك علمه الله. إذا لم تقدر على نفسك وغلبك غرورك فقل هذه الكلمات وارجع إليَّ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧].

إذن آدم دُرِّبَ على المنهج، وعَلَّمَهُ اللهُ كيف فعل به الشيطان ما فعل، وعلمه كيف يتوب إلى الله، ثم أرسله إلى الأرض وقال له: باشر مهمتك على ضوء هذه التجربة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. كان آدم يمثل المرحلتين: مرحلة الإنسان غير المعصوم فيقع في الخطأ فيعطيه الله ألفاظ التوبة، فيخشع ويرجع إلى الله، ومرحلة النبوة. وبعد ذلك قام آدم بإبلاغ تعاليم الله إلى أبنائه الذين أبلغوها إلى أبنائهم. ولكن شهوات النفس وغفلتها استطاعت ـ جيلاً بعد جيل ـ أن تنحرف بسلوك الإنسان عن تعاليم الله.

وهنا أرسل الله الرسل، وكان لا بد أن يحمل كل رسول إلى قومه معجزة ليثبت لهم صدق رسالته»[1].

---

(١) أسئلة حرجة وأجوبة صريحة للأستاذ الشيخ محمد متولي الشعراوي ص٥٤-٥٧، الناشر: دار العودة، بيروت.

التوسل والوسيلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

كانت الآياتُ السابقة لهذه الآية قد تحدَّثَتْ في اليهود الذين هَمُّوا ببسط أيديهم إلى رسول الله ﷺ حَسَداً من عند أنفسهم له وغروراً بدينهم، زاعمين أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، فجاءت هذه الآية آمرةً المؤمنين أن يتقوا اللهَ ويبتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح، وألّا يُفتنوا بدينهم كما فَعَلَ أهلُ الكتاب. وقد أكد هذا المعنى مبيِّناً أنَّ الفوزَ والفلاحَ لا يكونُ إلّا بهما.

وهذه الآيةُ الكريمةُ تخاطبُ الذين آمنوا فاستجابوا لله ولرسوله في كل أمرٍ ونهي بأخذِ الوقاية للنفس من عذاب الله بالابتعاد عن كل ما لا يرضاه الله، والثبات على الإيمان والتقوى. فهي تدعوهم إلى اتِّقاء سَخَطِ الله وعقابه. وسَخَطُهُ في مخالفةِ دينه والخروج على شريعته، فإنَّ الإنسان لا يكون من عباد الله المؤمنين بالتلفظ بالإيمان المجرد وحدَه، بل الذي يحققه وينضج ثمرته هو التقوى. والحصولُ على حقيقة التقوى ليس بالأمر الهيِّن، بل هو صعب المنال، لا يقدر على بلوغه إلّا مَنْ رَزَقَه اللهُ قوَّةً في الإيمان وثباتاً في اليقين. لذلك نجدُ القرآنَ الحكيم عَطَفَ ابتغاءَ الوسيلة على التقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾. فهو أمرٌ بتقوى الله بابتغاءِ الوسائل المؤدية إلى التقوى.

﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾: تَلمَّسُوا ما يَصِلُكُم به من تَقرّبكم إلى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. ويروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه فسَّرَ الوسيلة بالحاجة، مستشهداً بقول عنترة:

إنَّ الرجالَ لهم إليكِ وسيلةٌ أنْ يأخُذُوكِ تَكَحَّلي وتَخَضَّبي

فيكون من معنى الآية: أنَّ الناسَ مأمورون بطلب الحاجةِ من الله وحدَه؛ لأنه هو القادر على قضائها ولا يقدر على ذلك غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وكما جاء في الحديث الشريف: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاستعنْ بالله»[1].

وتفسيرُ الوسيلة بالحاجة هو تفسيرُ تقريب، ذلك أنَّ القرآن الكريم استعمل لفظ ﴿حَاجَةً﴾ نكرةً ثلاث مرات، قال تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ [يوسف: ٦٨].

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [غافر: ٨٠].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩].

وهكذا يظلُّ لفظُ التوسل يعطي معنى القربةِ والتماسِ السبيلِ إليه بما يُرْضيه.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: الجهادُ مأخوذٌ من الجَهْد: وهو المشقة والتعب. ويُراد به قتالُ أعداءِ الله الذين يقفون (حجر عثرة) أمامَ دعوةِ الله. ومما يتطلبه (الجهاد): الصبرُ على تحمُّل المواقفِ الصعبة والأهوالِ باقتحامها بغيةَ الفوز والفلاح.

ويُراد بالجهاد ـ أيضاً ـ: كَفُّ النَّفْس عن الأهواء وحَمْلُها على التزام الصراط المستقيم. فلا يُحْمَلُ قولُ الله تعالى هذا على القتال وحده، بل يَشْمَلُ

---

(١) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة، (باب: ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)، رقم الحديث (٢٥١٨). وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح.

ـ أيضاً ـ معنى بذلِ كلِّ جهدٍ ماديٍّ ومعنوي، حربيٍّ وغير حربيٍّ لنصرة دين الله في الأحوال المختلفة، وتحمُّل ما يكون من جرّاء ذلك من شدةٍ ونَصَب.

أما سبيلُ الله، فهو طريقُ الخيرِ والفضيلةِ المرتبط بنشر مبادئ الإسلام أو الدفاع عنه عن طريق بذل الطاقة البشرية، وإنفاق الأموال.

وينبغي ألّا يغربَ عن بالنا الشرطُ الأساسُ في الجهاد وهو: إخلاصُ النية لله: بأن تكونَ الغايةُ منه نصرةَ دين الله فحسب دعوةً ودفاعاً. وكما يكون الجهاد بالسيف والقتال يكون ـ أيضاً ـ بإنكارِ المنكر وبالكلمة الطيبة، فلا يتحقق الجهادُ في سبيل الله إلا بذلك. فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أعرابياً أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، الرجلُ يقاتِلُ للمغنم، والرجلُ يقاتل ليذكر، والرجلُ يقاتل ليُرَى مكانُه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ الله»[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: يا رسول الله، أخْبرني عن الجهاد والغزو؟ فقال: «يا عبدَ الله بنَ عمرو، إنْ قاتلتَ صابراً محتسباً، بَعَثَكَ اللهُ صابراً محتسباً، وإن قاتلتَ مرائياً مكاثراً، بَعثَكَ اللهُ مرائياً مكاثراً. يا عبد الله بن عمرو، على أيِّ حالٍ قاتلتَ أو قُتِلتَ بَعَثَكَ اللهُ على تلك الحال»[2].

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ عبدٍ يقومُ في الدنيا مقامَ سمعةٍ ورياء إلّا سَمَّعَ اللهُ به على رؤوس الخلائقِ يومَ القيامة»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داؤد والترمذي والنسائي وابن ماجه. انظر: الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٢٩٦. ضبطه وعلق عليه: مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) رواه أبو داؤد. انظر: الترغيب والترهيب ٢/ ٢٩٦.

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر: المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ٩٩ بتحقيق الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتيَ به فعرَّفه نِعَمَهُ فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ؛ لأنْ يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار»[1].

التوسل والوسيلة:

إنَّ قضيةَ التوسل والوسيلة من القضايا المشروعة التي اتفق على شرعيتها علماءُ المسلمين، مستدلين بآيات وأحاديثَ صحيحة: فقالوا بجواز التوسل بدعاء الأحياء، على أنْ يكونَ المتوسَّلُ به إنساناً صالحاً كقول رسول الله ﷺ لسيدنا عمر: «لا تَنْسَنا يا أُخَيَّ من دعائك»[2].

غيرَ أنَّ قسماً من الناس لم يفهموا معنى التوسل الذي شرعه الإسلام على حقيقته، فانحرفوا عن فهم الصحابةِ والتابعين وسلفِ الأمة له، ظانين أنَّ الوسيلة هي (الوساطة) بين الناس وربِّ الناس: فهم يستغيثون ويستشفعون بالأموات: يُلِمُّون بقبورهم، ويطلبون من هذه الأضرحة أنْ تقضيَ حوائجهم وتُغيثهم!

وتطوَّر الأمرُ أكثر، حتى صارَ الناسُ يشدُّون الرحال إلى قبور الأولياء والصالحين، ويُقسمون على الله بحقهم أنْ يحققَ لهم ما يريدون!!

وأحب هنا أنْ نقفَ أمام علماءِ اللغة والتفسيرِ وهم يفسرون معنى (الوسيلة).

---

(١) رواه مسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإمارة في الباب ٤٣ والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه.

(٢) رواه الترمذي في أبواب الدعوات، باب ١٢١ برقم (٣٥٥٧)، وهو حديث حسن صحيح.

الوسيلة في اللغة:

قال ابن منظور: «الوسيلة: القربة. ووسَّل فلان إلى الله وسيلة: إذا عمل عملاً تقرَّب به إليه... وتوسَّلَ إليه وسيلة: إذا تقرَّب إليه بعمل»[1].

وقال الفيروزآبادي: «ووسَّل إلى الله تعالى توسيلاً: عمل عملاً تقرَّب به إليه كتوسل»[2].

وقال الراغب الأصفهاني: «حقيقةُ الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاةُ سبيله بالعلم والعبادة وتحرِّي مكارم الشريعة وهي كالقربة»[3].

وقال الفيومي: «وتوسَّلَ إلى ربه بوسيلة: تقرَّبَ إليه بعمل»[4].

ونحن نرى من هذه الأقوال وغيرها أنَّ المرادَ بالوسيلة هو التقرُّبُ إلى الله بعمل. فلم يقلْ واحد منهم: إن معنى التوسل هو التقرب إلى الله بذوات الأشخاص أو اللجوء إلى الموتى.

المفسرون والوسيلة:

قال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: «واطلبوا القربةَ إليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة هي الفعيلة من قول القائل: توسلتُ إلى فلان بكذا، بمعنى تقربتُ إليه»[5].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١١/ ٧٢٤. الناشر: دار صادر، بيروت.

(٢) ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ترتيب طاهر أحمد الزاوي ٤/ ٥٥٢، الطبعة الأولى، ١٩٥٩م، مطبعة الرسالة، القاهرة.

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص٥٢٤، بتحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨١هـ.

(٤) المصباح المنير، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ص٩١٠، الطبعة الثامنة، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٩٣٩م.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري ٦/ ٢٢٦، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ.

وقال الزمخشري: «الوسيلةُ: كلُّ ما يتوسل به أي: يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك؛ فاسْتُعيرتْ لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي...»[1].

وقال ابن كثير وهو ينقل روايةً عن ابن عباس في تفسير الآية نفسها: «أي القربة. وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد. وقال قتادة: أي: تقرَّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه... وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلافَ بين المفسرين فيه»[2].

وقال أبو السعود في تفسيره: «هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله تعالى من فعل الطاعات وتركِ المعاصي من وسل إلى كذا أي تقرَّب إليه بشيء»[3].

وقال البيضاوي: «الوسيلة: ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعاتِ وتركِ المعاصي، من وسل إلى كذا إذا تقرَّب إليه»[4].

فلم يقل أحد من أعلام المفسرين إنَّ المراد بالوسيلة: «الاستغاثة بالموتى، أو التزلف بهم إلى الله، بل قالوا: هو التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة».

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل لمحمود بن عمر الزمخشري ١/ ٤٥٨، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٧هـ.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢، طبعة دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

(٣) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف أبي السعود محمد بن محمد العمادي ٢/ ٢٤، مطبعة محمد علي صبيح.

(٤) تفسير البيضاوي المسمى: أنوار التنزيل ١/ ٢٧٣، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

السلف وقضية الوسيلة:

وحين ننظر فيما خطه يَراعُ سلفِنا الصالح لم نَرَ أثراً عن واحدٍ من الصحابة ولا التابعين ولا واحد من علماء السلف أنه قرر أن الوسيلة إلى الله تُبْتغى بغير ما شَرَعَهُ الله للناس من الإيمان والعمل الصالح، ومنه الدعاء. ولم ينتشر الفهم الخاطئ للتوسل والوسيلة إلّا في القرون الإسلامية الوسطى؛ لذلك نرى شيخَ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله، كتب رسالته القيمة (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) قرَّر فيها أن التوسل بالنبي يُراد به ثلاثة معان:

الأول: أن يكونَ التوسلُ بطاعته والتقرب إليه بما يرضيه. وهذا فرض حتم وأصْلٌ من أصول الإسلام لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

الثاني: التوسل بدعائه. وقد كان هذا في حياته كما جاء في حديث استسقاء سيدنا عمر؛ إذ لو كان بعد موته لكان الأولى أن يتوسل عمرُ به ولا يتوسل بدعاء عمِّه.

الثالث: التوسل بمعنى الإقسام على الله بذاته. ولم نجدْ من الصحابة مَنْ فعل هذا لا في الاستسقاء ولا في غيره، لا في حياته عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ولا بعدَ مماته، لا عند قبره ولا قبر غيره.

وقد أورد (ابن تيمية) رحمه الله أقوالاً لأئمةِ الفقه والحديث تؤيِّدُ ما ذَهَبَ إليه: منها ما يقرر حرمةَ التوسل لدى الله بحق أحد من مخلوقاته ـ ولو كان نبياً ـ ومنها ما يقرر كراهية ذلك كراهة شديدة، ومنها ما يعتبره نوعاً من الشرك؛ لأنه دعاء بغير الله أو دعاء غير الله.

وقد قرَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأئمة قد اتفقوا على عدم جواز الحلف بغير الله استناداً إلى أحاديث نبوية صحيحة، وأورد أقوال الأئمة بعدم انعقاد اليمين بالأنبياء والصالحين والعرش والملائكة والكعبة والمسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى.

قال ابن تيمية: «الثالث: التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته. فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يُعرَفُ هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفةٍ مرفوعة وموقوفة، أو عن مَنْ ليس قوله حجة... وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه: إنه لا يجوز، ونَهَوْا عنه حيث قالوا: لا يُسأل بمخلوق، ولا بقول أحد: أسألك بحق أنبيائك. قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلّا به وأكره أن يقول: «بمعاقد العزِّ من عرشك» أو «بحق خلقك». قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز؛ لأنه لا حقَّ للخلْق على الخالق فلا تجوز وفاقاً»[1].

ومن يتأمل في الأدلة التي أتى بها الإمامُ (ابن تيمية) في كتابه القيم هذا يجدْ أنها أدلةٌ صحيحة قوية قد استندت إلى النقل والعقل، وأن جمهورَ الأئمة ذهبَ إلى عدم جواز دعاء غير الله والإقسام على الله بحق أحد مهما عظمت مكانته لقضاء المطالب الدنيوية، وبأن قضية التوسل التي درج عليها العامة من المسلمين في عصورنا المتأخرة ليس لها سند صحيح من كتاب ولا سنة، بل هي بدعة لا تتفق والتوحيد الصحيح.

---

(١) لزيادة الاطلاع انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص٤٨-٥١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

التوسل المشروع:

وهناك أنواع كثيرة من التوسل المشروع منها:

١ ـ التوسلُ بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٢ ـ التوسلُ بأسماء الله وصفاته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٣ ـ التوسلُ بالأدعية الواردة في صحيح السنة.

٤ ـ التوسلُ بأداء الفرائض والنوافل وأعمال الطاعات والقربات كلها: كالنَّفَرِ الثلاثة الذين قصَّ علينا قصتَهم رسولُ الله ﷺ حين آواهم المبيت إلى غار فدَخَلوه فانحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار؛ فدعا كلُّ واحدٍ منهم بصالح عمله؛ ففرَّج اللهُ عنهم، وهو من الأحاديث الصحيحة التي رواها الإمامان: البخاريُّ ومسلم.

الميت بحاجة إلى دعاء الإنسان الحيّ:

إن مما يجب على كل مسلم أن يؤمن به إيماناً راسخاً: أنَّ الأموات من الصالحين قد شُغلوا بالنعيم الذي أعدَّه اللهُ لهم في عالم (البرزخ)؛ فهم أكثرُ حاجةً منا إليهم بالدعاءِ لهم؛ ذلك أنَّ الأحياء في عالم امتحانٍ وابتلاء، يُحْصي اللهُ عليهم أعمالهم ويحاسبُهم عليها. أما هم، فقد انقطعَ عنهم كلُّ عمل.

موقف عادل:

ولا بُدَّ لنا أن نشيرَ هنا إلى أنَّ هؤلاء الذي فهموا التوسل فهماً خاطئاً قد قادَهم ذلك ـ في بعض الأحيان ـ إلى الشرك والعياذُ بالله؛ فإنَّ الله تعالى قال حاكياً عن المشركين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

ونُذَكِّرُ الذينَ يدعون مع الله أصحابَ القبور لقضاءِ حاجاتهم أو دفع الضرِّ عنهم بقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

أما الطرف الثاني الذي يفهم التوسلَ فهماً صحيحاً، فقد يتدخل حَظُّ النفس في الانتصار لرأيه، فيتخذ كلَّ سلاحٍ ليصل إلى ما يريد تقريره، فإذا هو من حيث لا يشعر يسيء إلى الأنبياء والصالحين، فيتطاول على مقامهم، وقد يستخفُّ ببعضهم!!

إنَّ دعوة الناس بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة هي التي تجعل الداعيةَ ناجحاً في دعوته، وتكتب له السلامة في دينه ـ أيضاً ـ وسلامة الدين لا تتحقق إلّا بتوقير أولياء الله وعباده الصالحين!

وإياك ـ أخي المسلم ـ أن يؤثر فيك ردُّ الفعل مما تقرؤه أو تسمعه من المغالين في التوسل؛ فتسيء إلى عباد الله الصالحين، فإن حُبَّ الصالحين من عباد الله مطلوب من كل مسلم. وهذا سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَبَدَه النصارى واتخذوه إلهاً، ومع ذلك فمقامه عند الله عظيم لم ينلْه شيء مما اقترفه ممن يدَّعون الانتسابَ إليه من ضلال وكفر. أما نحن المسلمين، فولاؤنا لسيدنا عيسى عظيم، ونؤمن به كما نؤمن بأنبياء الله كلهم.

حول زيارة القبور:

وقد تسأل ـ أخي المسلم ـ: ما حكم زيارة القبور؟

والجواب: إن زيارة القبور سُنّةٌ مؤكدة دعا إليها رسول الله ﷺ فقال: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تُزَهِّدُ في الدنيا وتُذكِّرُ الآخرة»[1].

يستطيعُ المسلمُ أن يزورَ القبورَ الزيارةَ الشرعية فيسلِّم عليهم ويدعو لهم، ويأخذُ العبرة والعظةَ من الموت الذي سيلحق كُلَّ إنسان!

على أنَّ قسماً من الناس لم يتحصَّنْ بالعقيدة السليمة التي يعرف بها ما لله وما للعباد؛ فينتابه الضعف البشري، ويتصور أنَّ صاحب هذا الضريح أو ذاك بعد موته لا يزال يلتقي الناس بكيانه كله! ومن هنا وجب على مَنْ لم يُحَصِّن نفسَه بالعقيدة الصحيحة السليمة أنْ يتجنبَ زيارةَ الأضرحة؛ لئلا يقعَ في الشرك.

التوسل بأصحاب القبور:

قال الإمام الشوكاني: «قد أكثر الناس من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات مثل: يا سيدي فلان أغثني. وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التقوّه بذلك، وألّا يحومَ حول حماه، وقد عدَّه أُناس من العلماء شركاً، وإلّا يَكُنْهُ فهو قريب منه. ولا أرى أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعوَّ الحيَّ الغائب، أو الميت المغيّب يعلم الغيب، أو يسمع النداء، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى، وإلّا لما دعاه، ولا فتح فاه، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم. فالحزم التجنب عن ذلك، وعدم الطلب إلّا من الله القوي الغني الفعّال لما يريد».

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز في الباب ٤٧ رقم الحديث (١٥٧١) ورمز إليه السيوطي بالصحة.

ثم يقول: «إن الاستغاثة بأصحاب القبور الذين هم بين سعيد شغله نعيمه وتقلبه في الجنان عن الالتفات إلى ما في هذا العالم، وبين شقي ألهاه عذابه وحبسه في النيران عن إجابة مناديه والإصاخة إلى أهل ناديه ـ أمر يجب اجتنابه، ولا يليق بأرباب العقول ارتكابُه. ولا يغرَّنَّك أنَّ المستغيث بمخلوق قد تُقضى حاجته وتنجح طلبتُه، فإنَّ ذلك ابتلاء وفتنة من الله عَزَّوَجَلَّ وقد يتمثل الشيطان للمستغيث في صورة الذي استغاث به؛ فيظنّ أن ذلك كرامة ممن استغاث به. هيهات هيهات، إنما هو شيطان من أضلّه وأغواه وزيَّن له هواه»[1].

وبعد:

هكذا يتبيَّن لنا ضلال أولئك الجهلة المتلاعبين بكتاب الله، من الذين اتخذوا الوسائط لتقربهم ـ بزعمهم ـ إلى الله، وهو أصل مهم من الأصول التي صار من اعتقد بها مشركاً، وكان موقف الإسلام حاسماً في هذه القضية؛ لأنه أراد أن يرفع قضية الوساطة بين الله والناس، فهم متساوون أمام الله في المسؤولية الفردية على أعمالهم. وعلى هذا يكون الجزاء بالجنة أو النار.

هذا هو الفهم السليم للوسيلة، إنها لا تكون إلّا باتباع ما جاء به رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن، تأليف عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٠٨٨-١٠٨٩، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

مقدمة ٥

الإعراض عن منهج الله وأثره في حياة المسلم

ارتباط الآيات بما قبلها ٩

هدف الآيات ٩

مع الآيات الكريمة ٩

الذكر في القرآن الكريم ١٠

متى تقع المعيشة الضنك؟ ١١

مسألة الحشر ١٤

قضية العمى ١٤

لمحة قرآنية ١٥

النسيان ١٦

إشكال ١٦

تذييل ١٧

المجتمعات الغربية والمعيشة الضنك ١٨

الأمراض العقلية والنفسية ٢٠

الإيدز معضلة العصر ٢١

الموضوع	الصفحة

المجتمع الغربي والجريمة ٢٤
حول تفكك الأسرة ٢٥
مجتمعنا العربي والإسلامي اليوم ٢٦

أُمُّ الخبائث

مقدمة ٣١
سبب النزول ٣٣
التفسير ٣٥
التدرج في التشريع ٣٩
فاجتنبوه ٤٢
حكمة التحريم ٤٨
١ ـ الخمر والصحة ٤٩
٢ ـ الخمر والجريمة ٥٢
٣ ـ الوباء الانتحاري ٥٣
٤ ـ مشكلات اجتماعية ٥٤
وعيد لمن يشربها ٥٦
العلماء الغربيون والخمر ٥٧
عقلاء يُحرِّمون الخمر على أنفسهم ٦٠

الموضوع	الصفحة

العلاج النفسي في القرآن الكريم

مقدمة ٦٧
العلاج النفسي في القرآن الكريم ٦٨
الإيمان أولاً ٦٩
سكينة النفس ٧٤
ذكر الله ٧٥
الإيمان والصبر ٧٦
الرزق بيد الله ٧٨
أجل المؤمن ٧٩
المؤمن والموت ٧٩
الإيمان بالقضاء والقدر ٨٠
الإحساس اللاشعوري بالذنب ٨٤
تجارب رائعة ٨٥
أ ـ تجارب استماع ٨٦
ب ـ تجارب صمت ٨٦

الصعود إلى السماء بين القرآن الكريم والعلم الحديث

مقدمة ٩٣
المعجزة القرآنية ٩٧

الموضوع	الصفحة

المنافقون في القرآن الكريم

مقدمة ١٠١
من صُوَر المنافقين ١٠٢
سبب النزول ١٠٥
بطلان القصة متناً ١٠٨
ما قاله العلماء ١١١
من صفات المنافقين في القرآن الكريم ١١٣
مقدمة ١١٣
النفاق في اللغة ١١٣
خطر المنافقين ١١٤
كيف ظهرت حركةُ النفاق ١١٤
المنافقون في القرآن الكريم ١١٦
لماذا أظهر المنافقون الإسلام وأخفوا الكفر؟ ١١٧
السلف وقضيّة النفاق ١١٧
التفسير ١١٨

آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

مقدمة ١٢٩
هكذا خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٣٠

الموضوع	الصفحة

الملائكة ١٣٢
من أعمال الملائكة في بني آدم ١٣٣
الملائكة تعرف طبيعة البشر ١٣٣
الملائكة تسأل عن الحكمة ١٣٤
هل صرَّحت الملائكة بالقول ١٣٦
آدم وتعلُّم الأسماء ١٣٧
لماذا خُصَّت الأسماء بالذكر ١٤٠
بداية التعليم ١٤١
سجود الملائكة وعصيان إبليس ١٤١
السجود في اللغة ١٤٢
لمن الخطاب؟ ١٤٢
بين الملائكة والجن ١٤٤
أصناف ثلاثة ١٤٤
هل خلق إبليس مختاراً؟ ١٤٥
أضواء حول معصية آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٤٧

التوسل والوسيلة

مقدمة ١٥٩
التوسل والوسيلة ١٦٢

الموضوع	الصفحة

الوسيلة في اللغة ١٦٣
المفسرون والوسيلة ١٦٣
السلف وقضية الوسيلة ١٦٥
التوسل المشروع ١٦٧
الميت بحاجة إلى دعاء الإنسان الحيّ ١٦٧
موقف عادل ١٦٧
حول زيارة القبور ١٦٩
التوسل بأصحاب القبور ١٦٩